

روجيه غارودي

تذكّر الاتحاد السوفييتي

بين الأمس وما صار إليه ..

مكتبة مدبولي



تذكر الاتحاد السوفييتي بين الأمس وماصار إليه= Souviens Toi brève histoire de l'uniou soviétique / روجيه غارودي : ترجمة قصي أتاسي ، ميشيل واكيم . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٥ . ــ ١٢٨ ص : ١٨ سم .

١ ــ ٩٤٧,٠٨٤ غ ا ر ت ٢ ــ ٩٤٧,٠٣٢٠ غ ا ر ت ٣ ــ العنوان
٤ ــ العنوان الموازي ٥ ــ غارودي ٦ ــ أتاسي ٧ ــ واكيم

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ٥٨ / ١ / ١٩٩٥ رقم الاصدار ٦٥٢

موافقة وزارة الاعلام
رقم: ٢٤٧٥٨
تاريخ: ١٩٩٤/١١/٢٩

ريع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ــ برقياً طلاسدار
هاتف : ٦٦١٨٩٦١ ــ ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ تلكس : ٤١٢٠٥٠

تذكّر
الاتحاد السوفييتي
بين الأمس وما صار إليه ..

ترجمة

قصي أتاسي - ميشيل واكيم

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

SOUVIENS-TOI !
brève histoire
de l'Union Soviétique

roger Garaudy

الطبعة الأولى ١٩٩٥

كلمة

- يعلن غارودي في « مذكراته » التي صدرت منذ خمس سنوات أن هذا الكتاب آخر كتاب له ... وهو في الفصل الأخير ينتظر قدوم الموت هادئاً مطمئناً انتظار فيلسوف امتدت تجربته الحياتية طولاً وعرضاً وعمقاً ؛ فلقد قال ما قال وكأنه أدى رسالته .
- ولكنْ هل يُستطاع الصمت لدى أصحاب العقول الكبيرة والنفوس الخيّرة ؟ ما داموا على اتصال بالحياة ، وما دامت الأحداث تضجّ ، والتغيرات تخطف البصر وتهز الوجدان وتقرع ناقوس الخطر وتهدد مستقبل الإنسان .
- وكان هذا الكتاب الجديد ... دفاعاً عن مواقف وقناعات سابقة وقفها غارودي وآمن بها ، وتأكيداً لأطروحات جرى طرحها بجرأة واستقلال وإيمانٍ بالحرية الحقة وتقديسٍ للعقل المنفتح الذي لا يعرف التعصب والانغلاق والاستجابة الساذجة للأوامر والنواهي .

- ويخرج غارودي عن صمته بعد انهيار أكبر تجربة تاريخية في الاتحاد السوفييتي ، تجربة كانت لها أخطاؤها وانحرافاتها ، فكان سقوطها في أحضان (اقتصاد السوق) حيث الاستغلال والحرمان والفوضى والتمزق والانقسام والمخدرات !!
- إنه العقل الكبير الذي لا يقف عند الظواهر العابرة والأحداث العارضة ، بل يحاول النفاذ إلى ما وراء القشور ليحلل الأسباب ويكتشف الجوهر ويستخلص المعاني والدروس .
- وغارودي يبقى الوفي المخلص لكل ما نادى به عبر تجربته الحياتية الغنية بدءاً بمنعطف الاشتراكية الكبير ... وانتهاءً بمكتب حوار الحضارات الذي أقامه في جنيف ودعوته إلى حوار الأديان ... ومروراً بتغنيه بالحضارة العربيه الإسلامية ودفاعه عن فلسطين وعروبتها .
- أليس من الوفاء والإخلاص لتلك المواقف والقناعات أن يخرج غارودي عن صمته ؟ ليصرخ صرخة التحذير القائلة :

إنه الخيار بين « بربرية » يُراد لها أن تأكل الأخضر واليابس وبين « حضارة إنسانية » تقوم على الوحدة والتعاون المثمر والحرية الحقة ... لتلغي غربة الإنسان وبؤسه وشقاءه ، وتفتح باب الأمل العريض في مستقبل مشرق .

المترجمان

تمهيد

إنّ عودة الرأسمالية إلى روسيا قد جعلت من الاتحاد السوفييتي في أعوام ثلاثة بلداً جديداً من بلدان العالم الثالث .

أما التدخل الأجنبي في كل المجالات من الاقتصاد إلى الثقافة فلقد أدّى على الصعيد الداخلي إلى ولادة (مافيا) من المضاربين تنمو ثرواتهم بين يوم وليلة وكأنهم فطور سامّة . أما الجماهير فقد انتشر في صفوفها ضرب من البؤس وصل إلى حدّ التسوّل والجوع ؛ وهذا ما يذكّرنا بما حدث عام ١٩٢٠ في الاتحاد السوفييتي من مجاعات نجمت عن التدخل العسكري و(الحصار الحديدي) الذي مارسته السياسة الغربية .

وعلى الصعيد الثقافي أو قلْ على الصعيد (المعادي للثقافة) أصبح هذا البلد ، شأنه شأن الولايات المتحدة ، مملكة للمخدرات وضروب الفساد . وفي الداخل امتدت قبضة يالتسين المحكَمة إلى العتاد الحربي للحصول بكافة الوسائل على القطع النادر ؛ وهذا ما أدّى إلى ضرب من النمو في التقنيات العسكرية البالغة التعقيد والتطور ، بما في ذلك الأسلحة النووية .

وماهذا وذاك إلا عَـرَض من الأعراض الواضحـة على التفكك المادي والأخلاقي في مجتمع يربو عدد سكانه على مئتي مليون نسمة .

إنّ يالتسين قد جعل من نفسه نِعْـمَ المنفذ المطواع لتوجيهـات المستشـار « جفري سـاش » الذي عينته الإدارة الأمريكية في موسكو ليعمل على فرض « ليبيرالية اقتصـادية » بطريق « المعالجة بالصدمة » ... شأنه شأن المتواطئين في أوربا في أثناء الاحتلال الهتلري .

ولقد أجاب الجنرال غروموف نائب وزير الدفاع الروسي على السـؤال القـائل : « ما الذي يمكن أن يكون أسـوأ من هذا ؟ » بقوله : « لم يبق إلا الخيانة ! » .

وإليك مثالين صارخين على هذه الخيانة :

أولهمـا مشروع موازنة عام ١٩٩٣ الذي تقدم به إلى البرلمان نائب رئيس الوزارة والذي أُعيد فيه النظر كلياً حسب شروط الصندوق النقدي الدولي كما هو الشـأن في دول العالم الثالث .

وثـانيهمـا أنّ سيـاسـة الصندوق النقدي الدولي التي تتضـمن التضـييق على موازنـات التربيـة والصحـة والإسكـان والضمان الإجتماعي مضـافاً إليـه إلغـاء القطاع العام وإطلاق الأسعار ، كانت قد ولّدت تفجرات اجتماعية ووطنية في الجزائر

عام ١٩٨٨ ، وفي كاراكاس عام ١٩٨٩ ، وفي يوغوسلافيا عام ١٩٩٠ . وقد تمّ كل ذلك على يدي (جفري ساش) والمضارب العالمي جورج سوروس الذي نسف قيمة الليرة الإنكليزية ... وهاهو ذا يالتسين يهيئ نفسه لممارسة القمع . إنه المثال الثاني على « الخيانة » .

كتب الأستاذ في جامعة لندن جوفري هوسكينغ في صحيفة (لندن تايمز) يقول : إنّ على الغربيين أن يتركوا يالتسين ليقوم بمهمة (الشرطي في شرق أوربا) . وهو يشير إلى أنّ يالتسين نفسه هو « الشخص الوحيد الذي صاغ هذا المقترح » .. ففي الثامن والعشرين من شباط عام ١٩٩٣ طلب الرئيس يالتسين فعلاً إلى (الغرب) أن يمنحه سلطة خاصة ليعمل على « حفظ النظام » .

وما نظن أحداً مثل يالتسين يستطيع أن يخدم على أحسن وجه (النظام العالمي الجديد) كما خدمه ريغان وبوش أو كلينتون .

إن الانقلاب الذي نفذه يالتسين في الحادي والعشرين من أيلول عام ١٩٩٣ وحلّ فيه البرلمان منتهكاً حرمة الدستور ثم حصار هذا البرلمان عسكرياً وضربه في الثالث والرابع من تشرين الأول على يد وحدات عسكرية أفسدها يالتسين بزيادة مرتباتها وجعل منها حرساً خاصاً حامياً للسلطة ... إن كل هذا قد

جعل منه مولى من موالي الولايات المتحدة .

واليوم تأمر الولايات المتحدة يالتسين بالتعجيل في العودة إلى الرأسمالية ، وذلك بتهديدها إياه بتقليص (المساعدة) المالية ، هذه المساعدة اللازمة لتجنب الانهيار الكامل في الاقتصاد الروسي ، ذلك الانهيار الذي أوصلته إليه سياسة (العلاج بالصدمة) القائمة على إلغاء القطاع العام وإطلاق الأسعار والبطالة ؛ وهي سمات للنظام الرأسمالي الذي يسمى اليوم بـ (الليبيرالية) .

وعلى الرغم من المراقبة الصارمة وتحريم وسائل التعبير على المعارضين وجد يالتسين نفسه أمام برلمان أشد عداءً من البرلمان الذي حلّه على نحو غير شرعي وقام بضربه .

وهكذا أصبح يالتسين مع الزمن تابعاً لهذه الفئة العسكرية التي قبلت بأمرٍ منه بمحاصرة البرلمان . وفي صفوف الجيش يتعاظم اليوم نفاد الصبر تجاه هذا الإذلال الناجم عن التبعية المطلقة للولايات المتحدة .

إن هذا الوضع قد أدى إلى تصاعد في الحركات القومية ، وأحدث الفوضى ؛ مما ينذر بانقلابات جديدة وانتفاضات على الجوع المهدّد أو بنشوء ديكتاتوريات عسكرية .

إن إنجاز عودة الرأسمالية إلى الاتحاد السوفييتي ـــ وهي

كعودة الملكية إلى فرنسا على أثر حركة ١٨١٥ ــ قد أخذ بخناق دولة كانت القوة العالمية الثانية ، وكرّس عهراً سياسياً راح يمارسه يالتسين الذي أصبح منفذاً لما تريده الولايات المتحدة والصندوق النقدي الدولي .

لقد ارتكبت الثورة الفرنسية مجموعة جرائم منها : إرهاب اليعاقبة ، وفساد جماعة الترميدور ، ودكتاتورية نابليون ؛ ولكنّ الملكية التي عادت لم تكتف بتحطيم تماثيل نابليون وروبسبيير ، وإنما حطمت كذلك تماثيل روسّو وفولتير وديدرو . ولقد أرادت الملكية أن تمحو من ذاكرة الفرنسيين « عصر الأنوار » وكل المظاهر الإيجابية للثورة ؛ وهذا ما يُمارَس اليوم في الاتحاد السوفييتي ، فما عاد يكتفي بإزالة تماثيل ستالين بل تناولوا تماثيل ماركس وتماثيل مؤسسي الاشتراكية . إنهم يتظاهرون بنسيان مظاهر العربدة والعهر في الرأسمالية ، وطغيان قياصرة روسيا التي كانت تسمى « سجن الشعوب » بسبب الاضطهاد الذي كان يتناول الأقليات العرقية وكل حركة تحررية .

إن محو الذاكرة لدى شعب ما هو الشرط الضروري لكل ارتداد في مسيرة التاريخ .

ونحن لا نريد إلاّ التذكير بتاريخ المرحلة القيصرية عبر هذه الصفحات الآتية .

١

روسيا القيصرية عشية ثورة أوكتوبر

إنها بلد يعدّ ١٧٥ مليون نسمة ترى فيه كل خصائص المجتمع المتخلف ، أما بنيته فتكاد تكون بنية استعمارية على الرغم من قيام بعض المشروعات المتطورة إلى حد بعيد .

وكانت نسبة الفلاحين إلى السكان العاملين تبلغ ٨٠ ٪ ؛ أما المنتوجات الغذائية فتمثل ٥٨ ٪ من الصادرات ؛ وأما السلع المصنّعة المستوردة فتمثل ٣٣ ٪ .

وأما الوضع في الريف فكان لا يزال شبه إقطاعي ؛ فنصف الأراضي البالغ ٧٠ مليون هكتار يملكها ٣٠ ألف مالك كبير ؛ وأما ما بقي من الأرض فكان يتقاسمه عشرة ملايين من الفلاحين .

وفي مجال الصناعة عرفت الرأسمالية قفزة سريعة ، وذلك على الرغم من أنّ صادرات السلع المصنعة لم تكن تمثل إلا ٥،٨ ٪ من المجموع أي أقل بعشرة أضعاف من الناتج الزراعي ... ولكنها رأسمالية تابعة ـــ بالضرورة ـــ للأجنبي ، وهكذا لجأت الحكومة القيصرية بسبب النقص في رؤوس الأموال إلى تسهيل تمويل المشروعات الصناعية

من قبل الرسـاميل والديون الأجنبية ؛ حتى إن أهم تلك المشروعات صـارت تابعـة للاحتكـارات الصنـاعيـة والمصرفية في الغرب ، هذه الاحتكارات التي كان يغريها ويجذبها رخص اليد العاملة .

أمـا الحكـومة نفسهـا فقد صـارت مدينـة من جراء القروض الخارجية ؛ وذلك على الرغم من الطابع الوطني لحركة رجال الأعمال التي تطورت من عام ١٨٩٠ حتى ١٩١٤ . وطبيعي أن تتوجه هذه الاستثمارات الأجنبيـة نحو الشـركات الكـبرى ؛ ومن هنا كان التمركز الكبـير ، فلقد كان قسـم مبيعات الفولاذ يشرف على ٨٠ ٪ من صناعات هذا المعدن ؛ وأما بترول القوقاز كاملاً فتستثمره شركة كبرى واحدة .

أما الطبقـة العاملة فكانت كذلك متمركزة ؛ فنصف العمال الروس كانوا يعملون في مشروعات يعمل فيها أكثر من ٥٠٠ عامل ، بينما لا يتجاوز هذا العدد ١٢ ٪ في فرنسا حينذاك . إن هذه الطبقة العاملة كانت قليلة العدد إلى حد بعيد ، فهي لا تشكل إلا نسبة ٤ ٪ من عدد القوى العاملة ؛ أضف إلى ذلك أنها منظمة بفعل تجمعها . وهكذا رحنا نشهد منذ عام ١٩١٤ حركات إضرابية متزايدة .

أما طبقة الفلاحين فمعظمها مسحوق من قبل كبار ملاكي الأرض ؛ ولم تكن الدولة تفعل شيئاً لتعليمها ... فإحصاء عام ١٨٩٧ يشير إلى أن ٣٣ ٪ فحسب من الذكور و١٤ ٪ من الإناث (ما بين ٧ ــ ١٤ عاماً) يترددون إلى مدارس القرى ؛ أي إن ثلاثة أرباع أبناء

الفلاحين لا يعرفون المدرسة الابتدائية ؛ وذلك على الرغم من أن محو الأمية قد شهد تقدماً في عشر السنوات الأخيرة من النظام القيصري وذلك بفضل جهود مجالس المحافظات . وفي قلب هذه الجماهير الفلاحية المعدمة على الصعيدين الثقافي والاقتصادي نشأت (أعمال) فوضى وعنف ... وهي كأنها ثورات فلاحية يتعاظم شأنها وعددها : فمن عام ١٩٠٥ إلى ١٩١٠ يمكن أن يعدّ ما يقرب من ٢٠ ألف تمرد ؛ ومن عام ١٩١١ إلى ١٩١٤ يمكن أن يعدّ أكثر من ١٣ ألف تمرد .

يضاف إلى حركة هذا (المخاض) البشري في سائر أنحاء روسيا غضب أولئك الوافدين إليها ؛ فمن الأورال إلى المحيط الهادي كانت القيصرية تفرض نظاماً استعمارياً جاعلة من هذه الامبراطورية « سجن للشعوب » .

وهناك حركات قومية جديدة كانت تولد في أوكرانيا وفي آسيا الوسطى وعبر القوقاز . ففي أوكرانيا قامت حركة (الرادا) لتطالب بالحكم الذاتي ؛ وفي آسيا الوسطى تشكل مجلس قومي وحزب مسلم . وفي كازاخستان حدث الشيء نفسه ؛ وفي جورجيا وأرمينيا وأذربيجان ارتفعت الأعلام الوطنية .

أما الكنيسة الأورثوذكسية ـــ شأنها شأن الكنيسة الفرنسية إبّان الملكية ـــ فكانت تمثل الدولة ؛ وقد أضافت إلى ضغط الدولة الاضطهاد الديني على الجماهير المسلمة في آسيا الوسطى على نحو

في تقرير له حول الوضع العسكري أمام لجنة الدفاع الوطني والشؤون الخارجية . وبعد أن ذكّر ببؤس الجيش الذي يعوزه الغذاء واللباس أضاف أن الجنود لم يعودوا يفهمون لماذا هم يواجهون الآلام والموت . وكان هناك مليونان من الجنود الهائمين على وجوههم « يصوّتون بحماسة للسّلام » .

وهكذا فإن دعوة البلاشفة إلى السلام في ظل هذه الظروف كان من المستحيل إسكاتها ... يقول وزير الدفاع : « إذا تلقى الضباط أمراً بعدم إطاعة سياسة الجيش الداعية إلى السلم فإنهم سيذبحون من قبل الجنود ... » ثم يستنتج قائلاً : « إن المعطيات الموضوعية تلزمني بالاعتراف صراحة وعلناً بأننا لن نستطيع الاستمرار في الحرب » .

خاص ... وجاءت الحرب العالمية الأولى لتعمل على إنضاج كل هذه التناقضات .

وفي هذا الجيش الهائل الذي يعدّ عشرة ملايين جندي ، تسعون في المئة منهم من أصل فلاحي ... لم تعد أهداف الحرب في نظر الجماهير الروسية تبدو (دفاعاً عن الوطن) ، ولكنها أهداف ذات أطماع أمبريالية في المضائق العالمية أو في أملاك الامبراطورية العثمانية ؛ بل إن هذه الحرب كانت بفعل الضغط الذي مارسته انكلترا وفرنسا القويتان على الاقتصاد والسياسة في روسيا القيصرية .

وهكذا وبعد أوهام الأيام الأولى إذ كان يتردد في روسيا وفرنسا شعار يقول : « إننا نتوجه نحو برلين » تبدى أن هذا « الطوق المحكم » بآلافه المؤلفة من الجنود غير المقتنعين بمعقولية هذه الحرب ... لا جدوى منه .

وبدأت الانهزامات تتراكم ... فقد عمل عدم تنظيم الجيش وسوء تموينه على قتل الروح المعنوية لدى جموع المحاربين . وبينما كان الجيش الألماني يدخل خليج (ريغا) مهدداً العاصمة بتروغراد كان الجيش الروسي يزداد تفككاً ... فلقد بدأ التراجع من خندق إلى خندق ، وراح الجنود يرفضون القتال ثم لاذوا بالهرب .

وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩١٧ قرر وزير الحربية الصادق فركوفسكي ـــ وكان قد كذبه كيرنيسكي في ٢٤ من تشرين الأول ـــ أن يقول الحقيقة في مواجهة الأكاذيب الرسمية ، وذلك



ثورة أوكتوبر ١٩١٧

إن كل عملية قمع تمارسها السلطة العسكرية ما هي إلا مرحلة من مراحل الثورة .

في الثامن عشر من شباط عام ١٩١٧ أضرب عمال مصانع الحديد في بوتيلوف ببتروغراد . وفي الخامس والعشرين من شباط أصبح الإضراب عاماً ؛ وفي السادس والعشرين أمر القيصر بإطلاق النار على المتظاهرين . وفي السابع والعشرين رفضت القوات العسكرية ومنها مدرسة الطلاب الضباط إطلاق النار على الجماهير وانضمت إلى صفوفها .

وقام البرلمان الذي كان يسمى دوما الامبراطورية بتشكيل حكومة موقتة (لإعادة النظام) ومحاولة إنقاذ الملكية إذ طلب إلى القيصر أن يستقيل ليحل محله أخوه ميشيل . وقد رفض القيصر ذلك فقام في روسيا حكم مزدوج : فهناك الحكومة الموقتة الناشئة عن دوما الامبراطورية في جانب ، ولجان العمال والجنود (السوفييت) التي ولّدتها الإضرابات وعمليات القمع المخفقة في جانب آخر .

وفي العاشر من آذار عام ١٩١٧ أطلقت الحكومة النار على الجماهير التي أعلنت الإضراب ثانية ؛ ولكن بعض قطعات حامية المدينة تمردت واحدة بعد الأخرى . وحينما استدعيت قوات من الجبهة لسحق حركة التمرد حال دون وصولها إلى العاصمة عمال السكك الحديدية . ونظم سوفييت المدينة أمر الدفاع على الرغم من أن الحكومة الموقتة التي رئسها أول الأمر الأمير لوفوف ثم الاشتراكي كيرنيسكي استمرت في ممارسة سلطتها .

أما القيصر الذي طلب الرحيل إلى انكلترا فقد تم إيقافه مع أسرته في السادس عشر من آذار .

ووصل لينين في الثالث من نيسان عام ١٩١٧ إلى بتروغراد بعد نفيه الطويل في سويسرا ؛ ثم أطلق شعاره القائل : « السلطة كل السلطة للسوفييتات ! » . وعلى الرغم من أن حزبه البلشفي كان لا يشكل إلا أقلية فقد خرجت في الرابع من تموز تظاهرة ضمت نصف مليون تنادي بشعاره الذي طرحه .

وقد أمر كيرنيسكي بإطلاق النار على الجماهير فسقط أكثر من أربعمئة شخص بين قتيل وجريح ؛ وهكذا أصبح قمع البولشفيك شرساً . وأمرت الحكومة باعتقال لينين الذي كان عليه أن يختفي عن الأنظار مرة ثانية .

وراح أعداء البلشفية وقد شجعهم هذا النجاح يهيئون لإقامة ديكتاتورية عسكرية فاستدعوا القائد العام للجيش الجنرال

كورنيلوف . ووجه كورنيلوف برضا من كيرنيسكي قطعات عسكرية من الجبهة إلى بتروغراد في الخامس والعشرين من آب تحت إمرة الجنرال كريموف . وقد تولى البلشفيك الدفاع عن المدينة فانتظم خمسة وعشرون ألفاً من العمال في صفوف (الحرس الأحمر) ؛ يقابل ذلك أن الجنود رفضوا الامتثال لأوامر ضباطهم .

وفي الثلاثين من آب انتحر الجنرال كريموف ؛ وفي اليوم نفسه أقيل كورنيلوف من منصبه وأحيل إلى المحاكمة .

وللمرة الأولى في الواحد والثلاثين من آب تبنى مجلس سوفييت بتروغراد قراراً بلشفياً .

وهكذا أصبحت الحركة الثورية لا مهرب منها ؛ وعبثاً كان قرار كيرنيسكي بحل لجان المقاومة وبنزع السلاح من أيدي العمال .

وفي الثامن عشر من تشرين الأول لم تعد حامية بتروغراد تعترف بالحكومة المؤقتة : « إننا لن نطيع أبداً إلا الأوامر الصادرة عن سوفييت بتروغراد بطريق اللجنة العسكرية الثورية » .

وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول وبمقتضى خطة نظمها لينين في مخبئه قام أفراد (الحرس الأحمر) بالاستيلاء سلماً على المحطات ومراكز البريد والبرق والمحطة الكهربائية والمطابع الكبرى ومصرف الدولة .

وغادر كيرنيسكي المدينة تحت حماية السفارة الأمريكية ليحاول جلب قوات من الجبهة لسحق ثورة بتروغراد .

وفي الساعة الخامسة عشرة من ٢٥ تشرين الأول خرج لينين ليظهر في سمولني حيث كان مجلس سوفييت بتروغراد منعقداً برئاسة تروتيسكي .

وحيّا لينين أولاً الانتفاضة السلمية الظافرة التي قام بها العمال وحامية بتروغراد ثم أطلق شعاره الخاص بالثورة الاشتراكية قائلاً :

« سوف تقدم الحكومة فوراً لكل البلدان المتحاربة اقتراحات من أجل إقامة سلم ديمقراطي عادل ، وسوف تلغي الملكية العقارية وتعطي الأرض للفلاحين ، وسوف تضع في أيدي العمال مراقبة الإنتاج وتوزيع المواد المصنعة ، وستراقب جميع المصارف التي ستصبح ملكاً للدولة » .

وفي الساعة الواحدة والعشرين حينما وصل إلى الجنرال تشيريمنوف خبر تسلم اللجنة الثورية للسلطة ألغى الأوامر الخاصة بتحرك قوات الجيش نحو بتروغراد .

وفي الثانية صباحاً تمّ الاستيلاء على (قصر الشتاء) حيث كان ينعقد مجلس الحكومة الموقتة وتم اعتقال الوزراء . وجرى نهب محتويات القصر ، فهدّد قادة الفرقة العسكرية بأن يرمى بالرصاص كل من ينهب ما صار من الآن (ملكاً للشعب) .

وهكذا تسلم البولشفيك من الآن جميع السلطات ؛ وقد تم هذا لا بانقلاب قامت به أقلية نشيطة ، ولا بمؤامرة مدبرة ... كما حاولت

الدعاية الغربية أن تصور ذلك على أنه « مؤامرة ألمانية » أو « مؤامرة يهودية » ...

وفي فرنسا كتب المدير الرصين لجريدة (الوقت) يقول : « إن هذه الحفنــة من المستنـيرين التي يقـودها الرعاع ليست مؤهلة لأن تتحدث باســم روسيا » . ويستنتج مدير جريدة (الوقت) على نحو قاطع « أن تصفية المغامرة البلشفية لن تستغرق إلا أياماً معدودات بل ساعات محدودة » (١٢ تشرين الثاني ١٩١٧) .

ولكن القضية كانت قضية انتفاضة ثورية عامة ... وأطلق لينين برنامجه البلشفي الذي يتضمن أموراً رئيسية ثلاثة :

١ ــ السلام .

٢ ــ الأرض للفلاحين .

٣ ــ المراقبة العمالية .

إنه برنامج يلبي مطامح الشعب كله .

١ ــ السلام

هذا « السلام الديمقراطي العادل » الذي أعلنه لينين هو سلام بدون تبعية ، أي إنه لا يرتبط بسلطان قوميات أجنبية ؛ وهو سلام يجب أن يتم حالاً .

ومن المجافي للصدق والشرف أن نقول إن لينين قد « نقض » بذلك الإعلان ، التحالفَ مع فرنسا حينما فكك

الجيش الروسي الكبير البالغ عدده عشرة ملايين محارب ، هذا الجيش الذي كان قد فقد في نهاية عام ١٩١٦ مليونين من القتلى وأربعة ملايين من الجرحى ... وبعد إخفاق هجوم الثامن والعشرين من حزيران عام ١٩١٧ على نهر الدنيبر في مواجهة الجيش النمسوي ـــ المجري ، وبعد تقدم الألمان في البلطيق حتى خليج ريغا أصبح عدد هذا الجيش مليونين من الهائمين على وجوههم .

كتب أحد قادة الجيش القيصري الجنرال دراغوميروف في شهر أيار عام ١٩١٧ تقريراً جاء فيه : « إن الرغبة في السلام تسود الجيش ؛ وإن من يبشر بسلام دون تبعية ويمنح حق تقرير المصير للشعوب يستطيع بسهولة أن يكسب رضا الجيش ... وقد بلغت الرغبة في السلم حداً جعل الجنود الذين يصلون إلينا يرفضون حمل السلاح قائلين : نحن لا نعرف ماذا نصنع بهذا السلاح وليست لدينا الرغبة في أن نتقاتل » .

وهكذا لم يعمل لينين على سحق تلك الحماسة لدى جيش راح يحاول ضرب ألمانيا من الخلف ، وإنما عبر عن المطامح العميقة لدى ملايين الجنود ومعظمهم من الفلاحين في جيش ما عاد يقوى على المناورة والحركة ؛ وقد أظهر لينين لهذا الجيش مغزى الأهداف الحقيقية لسلام دون تبعية ودون أغراض استعمارية .

وحينما لم تلبّ أية قوة غربية هذه الدعوة إلى سلم حقيقي ، وكان الجيش الروسي خارج المعركة ، وقّع لينين في الثالث من آذار عام ١٩١٧ صلح برست ليتوفسك مع ألمانيا ... وكانت الشروط قاسية ؛ ولكن لينين قبل بالتنازلات الإقليمية لأنه على يقين بأن شعوب أوربا ستثور على هذه الحرب وستحذو حذو روسيا . وهذا ما تمّ فعلاً ، ففي عام ١٩١٨ عمّت العدوى الثورية الامبراطورية الألمانية وفرضت السلام . لقد أعلن بحارة ميناء كييل في الرابع من تشرين الثاني تمردهم وشكلوا سوفييتاً من العمال والجنود ؛ ثم انفجر العصيان في ميونيخ في السابع من الشهر نفسه ؛ وفي التاسع منه تسلم السلطة في برلين مجلس مفوضي الشعب ؛ وفي اليوم العاشر انعقد في ريغا مؤتمر لمجالس العمال والجنود في ألمانيا ... وهكذا اضطرت ألمانيا للاستسلام في الحادي عشر من تشرين الثاني . وفي الثالث عشر من تشرين الثاني أعلن المجلس التنفيذي المركزي لروسيا إلغاء معاهدة برسك — ليتوفسك .

٢ — الأرض للفلاحين

في صيف عام ١٩١٧ راحت الثورات الفلاحية تتوسع وتتخذ طابعاً خاصاً ، هذه الثورات التي كانت تتفجر منذ سنوات في الامبراطورية القيصرية راحت تعمّ وتنتشر حتى إنه لم

يبق إلا نسبة ٨ ٪ من الأرض الروسية خارج سلطانها . وقد تغيرت طبيعتها لأنها لم تعد عمليات انفجارية أو عمليات سطو ونهب وتهديم (قصور تحور رماداً ومواسم تأكلها النار واغتيالات لكبار ملاكي الأرض ...) بل إنها أصبحت مع تشكيل لجان الفلاحين عملاً منظماً بنّاءً : فهناك التملك والاستثمار للأراضي المصادرة ، وزراعة للأراضي البور ولأراضٍ تصلح للاستثمار ؛ وهكذا فإن قرار توزيع الأراضي لم يفعل شيئاً سوى إضفاء الصفة الرسمية وتوجيه الخبرات الفلاحية التي كان لها وجودها في الماضي القريب .

ولم يكن لينين ـــ على الرغم من الانتقادات الموجهة إليه من قبل رفاقه ـــ ليحاول فرض برنامج بلشفي خاص بالزراعة ، بل إنه لبّى مطالب الفلاحين الفقراء ونفّذ البرنامج الذي كان قد منعه خصومه الاشتراكيون ؛ وذلك كيلا يتعرف الفلاحون على البرنامج الشيوعي في التعاونيات الزراعية إلا عبر تجربتهم الخاصة وبعد مرحلة من التجريب والخطأ .

٣ ـــ المراقبة العمّالية

منذ مذبحة (لينا) عام ١٩١٢ التي كان لها صدى واسع في كل أرجاء روسيا تجذّر هذا الشعار الذي أطلقه لينين في جميع المراكز الصناعية .

في الرابع من نيسان عام ١٦١٢ وعلى اثر الإضراب الذي حدث في مناجم الذهب في (لينا) احتجاجاً على عدد ساعات العمل (وكان قد حددها قانون ١٨٩٧ بإحدى عشرة ساعة ونصف الساعة) وعلى الظروف المعاشية الصعبة لعمال المناجم ... تلقت قطعات الجيش الأمر بإطلاق النار على المتظاهرين ؛ فكان لهذه المذبحة دلالة عميقة على أن هذه المناجم تمتلكها شركة احتكارية كبرى ، إنها الشركة الصناعية للذهب في (لينا) التي يعود سبعون في المئة من أسهمها إلى شركة انكليزية ؛ وكان مسؤولون كبار ، منهم أرملة الامبراطور الكسندر الثالث ماريا فيدورفنا ؛ يسهمون في أعمال هذه الشركة . وقد نجم عن هذه المذبحة مصرع ٢٧٠ قتيلاً ووقوع ٢٥٠ جريحاً ؛ وقامت مظاهرات غاضبة في بتروغراد وموسكو ؛ وأعلن عمال روسيا احتجاجهم بإضراب عام في الأول من أيار .

ومنذ ذلك الحين اتسعت الحركات الكفاحية العمالية ونمت وزادت حدّةً ؛ وكذلك الأمر فيما يخصّ المراقبة العمالية ... وهكذا حتى كان الإضراب الحاسم الذي أعلنه عمال الحديد في مصانع بوتيلوف ببتروغراد في الثامن عشر من شباط عام ١٩١٧ الذي ولّد الإضراب العام في الخامس والعشرين من شباط .

إذن ليست القضية قضية مؤامرة أو انقلاب جريء؛ بل هي انتفاضة شعب يفتح لنفسه آفاق نظام إنساني جديد .

وقد حيّا هذا الحدث من فرنسا أناتول فرانس وبول لانجوفان ورومان رولان وأشادوا بمغزاه التاريخي على صعيد العالم .

وفي انكلترا كتب برتراند رسّل مقالة نقدية هي معادية للبلشفيك ، ولكنه قال فيها : « إن الثورة الروسية هي إحدى كبريات الحوادث التاريخية في حياة العالم ؛ ومن الطبيعي أن تقارن بالثورة الفرنسية ؛ ولكنها في واقع الأمر تفوقها بأهميتها الفلسفية » .

والواقع أن هذه الثورة في مبادئها — على الرغم من الأخطاء اللاحقة التي ستحجب دلالاتها الأساسية — ثورة جديدة كل الجدّة إذا قيست بالثورات الأخرى .

إن إعلان وثيقة الاستقلال الأمريكية التي نادت بمساواة عامة بين الناس قد أبقت على عبودية السّود على مدى قرن كامل .

وأما إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي طرحته الثورة الفرنسية والذي نادى بمبدأ المساواة نفسه فكان مقدمة لدستور يحصر حق الاقتراع في دافعي الضرائب دون غيرهم حارماً بذلك ثلاثة أرباع الفرنسيين هذا الحق ، وذلك بطريق التمييز بين

الناس بمعيار الثروة .

وهكذا ضمن الإعلان الأمريكي الامتياز للبيض كما ضمن الإعلان الفرنسي الامتياز للملاّكين .

إن المبادئ الأساسية الثلاثة لثورة أوكتوبر ألغت ـــ لأول مرة ـــ كل الامتيازات : امتياز ملكية الأراضي ، وامتياز ارباب العمل ، وامتياز الحكام الذين يشعلون حروب السطو والسلب .

ومن هنا يمكن أن نفهم سبب مشاعر الغضب والكره والحقد التي يكنّها أصحاب الامتيازات في العالم لثورة أوكتوبر . لقد استولت على قلوبهم أسطورة الرعب الثوري منذ الانتفاضات العمالية الأولى ؛ فهم يرون أن كل تغيير في النظام القائم وكل ثورة ما هي إلا لصوصية هدفها تقاسم الثروات .

أما شعارات (الثورة المضادّة) التي سترمى بها الثورة الجديدة فهي جاهزة منجزة منذ قرن من الزمن ... ففي انتفاضة عمال باريس عام ١٨٤٨ وعندما أقام العمال المتاريس بعد إغلاق (المعامل الوطنية) التي كانت توفر الخبز والعمل ، أصدر الوزير ماري الذي قرر هذا الإجراء المميت حكمه على الانتفاضة بقوله : « إنها البربرية التي تجرأت فرفعت رأسها في وجه الحضارة » . أما الجنرال كافينياك فقد أغرق بالدم انتفاضة اليأس هذه ذات الآمال البعيدة .

ويتحدث البابا بيوس التاسع عن (الطاعون الأحمر) ... ويصرخ أخو نابليون الثالث دوق دي موري غاضباً ليقول : « إذا رأيتم اشتراكياً عن قرب فلا تترددوا في أن تفضلوا عليه قوزاقياً متخلفاً ... تلك أبعاد وطنيتي » .

وبعد (كومونة) باريس كان التعريف المطلق لكل ثورة كما صاغه (تين) بقوله :

« سنشهد الغوغاء وقد أصابها الجنون تعمل طويلاً تحت إمرة حمقى أصبحوا مجانين » .

إن هذا (الرعب العظيم) من المحرومين الذي لم يدم سوى خمسة أيام عام ١٨٤٨ وثلاثة أشهر مع كومونة باريس عام ١٨٧١ سيدوم هذه المرة سبعين عاماً .

وفي عام ١٩١٧ يتصدى سيرج شاسّان المراسل الخاص لصحيفتي (صوت باريس) و(المصور) للتحذير مما أسماه (يوم القيامة الروسي) فيقول : « إن المعدم الشقي الذي ما تزال روائح جروح سجنه تفوح أصبح سيد روسيا الأشتراكية ... إن روسيا تحكمها حثالة الضواحي وطفح المدن الكبرى ... إنه حكم الرعاع ... إن روسيا أصبحت رأس اللصوصية العالمية وعرّافة النذالة الشاملة ... » .

وهكذا راحت تتآلف جميع المخاوف والأحقاد ، الخوف من الاشتراكية والحقد على (البربرية الشرقية) ، وكأننا أمام

عمـلية إحياء لتنبؤات قديمة كالتي تنبأ بها إرنست رينان حينما أعلن عن (الســاعة) التي يجيء فيهـا « الســلافي كتنين يوم القيـامة ، هذا التنـين الذي يجر ذيله فوق النجوم ليشد وراءه قطيع آسيا الوسطى من أحفاد جنكيزخان وتيمورلنك » .

وكان المركيز دي كوستين قد سبق إلى التحذير من هذه المخاوف المقْولبـة في كتـابه (روسيا عام ١٨٣٩) وكأنه يخط وثيقـة اتهام لثورة أوكتوبر عام ١٩١٧ قبـل أن تحدث فقال : « إذا قُــدّر للشعب الروسي أن ينجح في إقامة ثورة حقيقيـة فستكون المذبحة منظمـة تنظيم كتيبة عسكرية ... وستنقلب القرى ثكنات ... وسيبرز القتل المنظم بسلاحه من الأكواخ ويتقدم في صف واحد ... وسوف يهيئ الروس أنفسهم للسلب من سمولنسك إلى إركوتسك وكأنهم يمشـون في ســاحة قصر الشتاء » .

إن هذا السيناريو الجاهز المنجز الذي لم يتجاوزه أحد عبر قرن قد تم استخدامه دليـلاً هادياً تستقى منـه المعلومات الخاصة بالثورة الروسية كما استخدم في ثورة ١٨٤٨ وفي كومونة باريس .

هناك إعلان مصور شهير يختصر كل ضروب التلاعب بالرأي العام ... إنه « يمثل رجلاً والسكين بين فكيه » ؛ وهو صورة مكررة للثوري في كل الأزمنة ، ولكنه لعب دوراً تاريخياً

في أثناء الحملة المنظمة على روسيا عام ١٩١٩ ؛ فبفضل هذه (الفزّاعة) وبفضل عزف ذلك اللحن نفسه في صحافة تلك الفترة تم إنجاز انتخاب مجلس النواب الفرنسي ... وهذا ما جرّ فرنسا إلى تراجع اجتماعي قادها بعيداً عن التطورات الإنسانية في بداية هذا القرن .



٣

الغزو الأجنبي والحرب الأهلية

إن قوى الغرب لكي تسحق أسرع ما يمكن انتفاضة جماهير الشعب الروسي ، لم تستطع الاعتماد على القوى الداخلية المناهضة للثورة ... شأنها في ذلك شأن أوربا قبل ١٣٠ عاماً إذ لم تستطع أن تحارب الثورة الفرنسية بالاعتماد على المهاجرين الفرنسيين المجتمعين على الحدود في كوبلنتز .

وهكذا لم تحاول قوى الغرب سحق هذه الثورة إلا بالغزو الأجنبي كي تعيد الرأسمالية وتشرذم البلاد ، وذلك بتغذية المشاعر الخاصة بالخصوصية القومية بغية فرض نظامها . ومع غياب الخيانة الداخلية القادرة اتخذ التدخل طابعاً عسكرياً ؛ ففي آذار عام ١٩١٨ نزلت قوات انكليزية في الشمال في مورمنسك واستولت عليها وعلى مدينة إركانجيلسك .

وفي الرابع من نيسان احتلت قوات انكليزية وفرنسية وأمريكية فلاديفوستك في الشرق ... ثم تركز الغزو على قلب روسيا ذاتها ، فوصلت القوات الحليفة إلى بيلوروسيا مستخدمة عصيان ٤٠ ألف

سجين تشيكي في سيبيريا وبضعة آلاف قوزاقي في منطقة الدون ...
بينما كانت القوات الألمانية التي حالفت منذ نيسان عام ١٩١٨ جنرالاً قيصرياً قوزاقياً (سكوروبادسكي) لفرض هيمنتها على أوكرانيا ، تتقدم إلى شبه جزيرة القرم وبلاد البلطيق لتضم أراضي لم تنص عليها بنود صلح برست ليتوفسك .

أما قادة التحالف — وهم ما زالوا في حرب على ألمانيا — فلم يقوموا بأية مبادرة في وجه هذا المدّ الألماني الذي سيعين على تطويق روسيا الثورية في إطار جبهة تمتد من بحر البلطيق إلى القوقاز وعلى احتلال ثلاثة أرباع ترابها الوطني وحرمانها المناطق الرئيسية المنتجة للمواد الأولية من محروقات وقمح . أما الحصار الاقتصادي الشديد فقد خنق البلاد بالمجاعات والأوبئة ولا سيما التيفوس ، وذلك بغية إثارة ضروب العصيان وأعمال الشغب .

وهاهو ذا ونستون تشرشل يتفاخر في كتابه « أزمة العالم » بتنظيمه « حملة من أربع عشرة دولة » على جمهورية السوفييت ؛ وهذا الرقم يذكرنا بالجيوش الأربعة عشر التي ألّبتها أوروبا عام ١٧٩٢ تحت إمرة الدوق برونشفيغ لسحق باريس والثورة الفرنسية . أما كليمنصو في فرنسا فقد صرح بأنه يجب ان نمارس في وجه روسيا الحمراء « سياسة التطويق بالأسلاك الشائكة » . ويضيف تشرشل الأشد عداوة قوله :
« لا بد من إقامة حجْر صحي ... ثم نخترق موسكو » .

ولقد عُهد بالقوة الرئيسة المشكلة من أربع عشرة دولة إلى جيش

دينيكين الذي لم يبخل عليه الأمريكان والإنكليز بإمدادات السلاح .
يقول تشرشل موضحاً : « لقد قدمت بريطانيا العظمى مساعدة رئيسية لدينيكين لا تقل عن ٢٥٠ ألف بندقية و ٢٠٠ مدفع و ٣٠ آلية وكمية كبيرة من السلاح والعتاد أُرسلت إلى نوفوروسيك بطريق الدردنيل والبحر الأسود . وقد هبّ بعض مئات من الضباط والمتطوعين من الجيش البريطاني لمساعدة جيش دينيكين من مستشارين ومدربين ورؤساء مستودعات وطيارين » .

وإذا أغفلنا تفاصيل مراحل هذا الصراع في وجه التدخل الأجنبي الذي سمّاه جنرالات الجيش القديم (دينيكين ، يودينتش ، كولتشاك ، فرانغل) « حرباً أهلية » أمكن لنا أن نلحظ الظاهرة الآتية :

أمام جيوش ذات إمكانات تقنية عالية قدمها الأجانب ولها ضباط محترفون ... هبت الجماهير الشعبية الفلاحية والعمالية التي كانت قد رفضت منذ عدة أشهر القتال في حرب هدفها اقتسام جديد للعالم بإقامة توازن جديد للقوى (مثل اقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية المتفق عليه منذ ١٩١٧ بين انكلترا وفرنسا بموجب اتفاقيات سايكس بيكو) ... نعم إن هذه الجماهير نفسها قد تضافرت بكل قواها في وجه العالم كله مجابهة جيوش الغزو الأجنبي وعناصر الثورة المضادة المصانعة لها .

ومنذ خريف ١٩١٨ راحت المقاومة تزيل الحصار عن نفسها .

ولقد كانت الأخطار جسيمة ؛ ومما زاد في جسامتها أنه في قلب الحصار العسكري واحتلال ثلاثة أرباع البلاد ولدت حركة إرهابية في الداخل بتحريض من سافنكوف الذي سبق له أن نادى إبّان الحكم القيصري بالقتل على أنه وسيلة سياسية .

وفي الثلاثين من آب جرح لينين في محاولة اغتياله التي قامت بها فاني كابلان ؛ وذبح قائد شرطة بتروغراد . وقرر البلشفيك أن يواجهوا الإرهاب الدموي الأحمر بإرهاب سلمي أبيض كما حدث في فرنسا عام ١٧٩٣ .

وعلى جميع الأصعدة كان التوتر يزداد لمقاومة العدوان الخارجي ؛ مثال ذلك أنه على مدى ثلاث سنوات هيمن في الاقتصاد ما سمّي « شيوعية الحرب » . وقد احتج بوخارين ولينين على هذا التعبير لأن الإجراءات التي اتخذت لا تنبع من النظرية الشيوعية ، ولكنها نبعت من مقتضيات النضال في مجابهة الغزو ؛ وهذا ما نلحظه في « قوانين فانتوز » لسانت جوست عام ١٧٩٣ في فرنسا ، هذه القوانين التي ليس لها أي طابع اشتراكي ... بل إنها ترمي إلى توجيه كل طاقات الثورة إلى مواجهة أعدائها الأوربيين المتحالفين .

كان يجب ـــ على سبيل المثال ـــ لتأمين الغذاء والكساء والسلاح ونقل قطعات الثورة ، أن تؤمم الصناعات ولا سيا صناعة الأسلحة وذلك لإيقاف مفعول المضاربات ، وأن تصادر الحبوب

والأعلاف والمواشي ، وأن يتم الإشراف على حركة النقل ، وأن تنظم التجارة بغية منع التلاعب بقوت الشعب .

وبفضل هذا التركيز الخارق لكل القوى ، وبفضل مبادرات القاعدة ، كالتبرع بساعات عمل إضافية في المصانع ، والهبات الطوعية من قبل الفلاحين الذين وعوا أن الثورة المضادة ستعيدهم إلى عبوديتهم القديمة ... استطاع الجيش الأحمر أن يصدّ الهجوم على جميع الجبهات : فلقد تحررت أوكرانيا من قادتها الدمويين من أمثال سكوروبادسكي حليف الألمان ، وبيتليورا الذي يدعمه الفرنسيون والإنكليز .

وتقدمت موجة جديدة من موجات الغزو بنزول ١٣٠ ألف جندي من قوات التحالف الغربي في أوديسا وسيباستيبول ؛ وذلك لتأمين « منطقة حماية في أوكرانيا طوال مدة الحرب في مواجهة البلشفيك » على أملٍ بتكوين جيش من ٣٠٠ ألف جندي يقوده بيتليورا والجنرال دينيكين .

وقد جرت العملية نفسها في الشمال . كتب الجنرال يودينتش يقول : « يجب على قوات التحالف أن تحتل الموانئ الرئيسية ومدن البلطيق بغية إعادة الشرعية والنظام والسماح للقوات الروسية بتنظيم نفسها في صراعها في مواجهة البلشفيك » .

وفي أقصى الشرق وفي سيبيريا وفي الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩١٨ تسلم السلطة مدعوماً من قوات التحالف الغربية الأميرال

القيصري كولتشاك وأعلن نفسه « الحاكم الأعلى لروسيا » . ووضعت الحكومة الأمريكية بين يديه ٢٠٠ ألف بندقية ورشاشات ومدافع ... وكذلك فعلت فرنسا وإنكلترا لتتيح له تشكيل جيش قوامه ٢٥٠ ألف مقاتل يحميه من خلفه ٢٠٠ ألف جندي من قوات التحالف .

وفي الجنوب كذلك وفي مطلع كانون الثاني ١٩١٩ حرر الجيش الأحمر أوكرانيا من فلول عصابات بيتليورا ، وذلك بفضل تمرد البحارة الفرنسيين في البحر الأسود الذين رفضوا بقيادة البحار الفرنسي أندريه ماري في نيسان ١٩١٩ أن يقاتلوا القوات السوفييتية وألزموا الأسطول أن يعود أدراجه إلى قاعدته في بيزرت بفرنسا .

وفي مطلع عام ١٩١٩ حررت القوات السوفييتية في الجبهة الشرقية منطقة الأورال ودخلت تركستان ؛ ولكن هذه القوات وجدت نفسها في مواجهة موجة جديدة من الهجوم ألزمتها أن تقاتل على ست جبهات .

في أول الأمر بدأ الهجوم على الأورال وسيبيريا وأقصى الشرق حيث كانت تسيطر الديكتاتورية العسكرية لـ(كولتشاك) الذي انطلق في هجومه على الفولغا بينما كان يودينتش يمشي صوب بتروغراد حليفاً للقوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية التي نزلت في الشمال .

وتم سحق جيش كولتشاك فيما بين نهاية نيسان وبداية حزيران من عام ١٩١٩ .

وفي النصف الثاني من عام ١٩١٩ وقّع دينيكين الأمر بالهجوم

على موسكو انطلاقاً من الجنوب ، وذلك في محاولتين : الأولى في الثالث من تموز ، والثانية في ١٢ أيلول ١٩١٩ ؛ وقد حرر الجيش الأحمر في الثاني عشر من كانون الأول خاركوف وطارد فلول جيش دينيكين الذي انكفأ قسم منه إلى أوديسا والقرم ، وارتد القسم الآخر إلى القوقاز . وفي السابع والعشرين من آذار حررت نوفوروسيك ... ولم يعد لجيش دينيكين وجود ... فلقد لاذت بقاياه بالهرب إلى الخارج .

وفي الشمال اندحر يودينتش ثم سحق ، وهرب في نيسان إلى استمبول . وعلى الجبهة الشرقية حطم كولتشاك أيما تحطيم ثم استقال من القيادة ... ثم جرت محاكمته بتهمة الخيانة ونفذ فيه حكم الإعدام في السابع من شباط عام ١٩٢٠ .

وقامت هبّتان معاديتان من قبل قوى الاجتياح المدحورة . كانت الأولى في الجنوب بقيادة البارون فرانجل ؛ ولكن في تشرين الثاني ١٩٢٠ اضطرت فلول جيشه التي سحقتها القوات السوفييتية إلى الإبحار صوب استمبول . وكانت الثانية في بولونيا حيث تسلم سلطة ديكتاتورية عسكرية الماريشال بيلدسوسكي في آذار عام ١٩٢١ .

وفي أثناء عام ١٩٢١ ... وبعد إخفاق تدخل الغربيين اعترف هؤلاء واقعاً وقانوناً بروسيا السوفييتية . وقامت إنكلترا بحكم الواقع بإبرام اتفاق تجاري في شهر آذار ، وحذوت حذوها ألمانيا في شهر أيار ، وكذلك فعلت النرويج في أيلول ، ثم إيطاليا والنمسا في كانون الأول .

تقول موسوعة بليياد للتاريخ العالمي في جزئها الثالث ما يلي :

« منذ نهاية عام ١٩٢١ انتهت في روسيا الحرب الأهلية التي كان يغذيها قبل كل شيء التدخل الأجنبي » .

٤

إعادة البناء
والسياسة الاقتصادية الجديدة

خرجت روسيا الثورة ودماؤها تنزف من هذه السنوات الثلاث التي أمضتها في قتال لا رحمة فيه في وجه الغزو ، وبعد ثلاث سنوات من الحرب القيصرية المدمرة .

وبعد النصر الباهظ الثمن ، وبعد أن بذل العمال والفلاحون في المعركة أعظم التضحيات وذاقوا ألوان الحرمان ليمنعوا عودة الرأسمالية وكبار ملاكي الأرض والنير القيصري ما عادوا يستطيعون أن يحتملوا في السلم هذا الضيق الخانق الذي لا يحتمله البشر .

وهكذا انفجرت في كرونستاتد في الثامن والعشرين من شباط ١٩٢١ انتفاضة تحمس لها الغزاة المنهزمون الذين يحلمون بالانتقام . وأصبح من الضروري العاجل إنهاء حالة اقتصاد الحرب في كل أرجاء البلاد .

وقد صرح لينين منذ الرابع من شباط ١٩٢١ أمام عمال التعدين في موسكو قائلاً : « لقد عاش الفلاحون في هذا الشتاء وضعاً مأساوياً ، ونحن نقدر استياءهم ؛ فلنعد النظر في العلاقة بين العمال

والفلاحين » . وقد لعبت الثورات الفلاحية منذ صيف ١٩٢٠ دوراً أكبر مما لعبته انتفاضة كرونستاتد في التحول صوب سياسة اقتصادية جديدة .

وعلى الرغم من ألوان المقاومة التي أبداها القادة المتشددون في الحزب البلشفي رسم لينين الخطوط الكبرى « لسياسة اقتصادية جديدة » تبناها المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي في روسيا في آذار عام ١٩٢١ .

لقد حلّ محل المصادرات التي تمّت إبّان الحرب ضريبة عينية تلائم دخل الفلاحين وتراعي أشدهم فقراً . وحينما يؤدي المزارعون تلك الضريبة يصبحون أحراراً في بيع منتوجاتهم في السوق ؛ وقل الشيء نفسه فيما يخص الصناعة الصغيرة ، فلقد أصبحت التجارة الخاصة حرّة .

وتمّ تشجيع التعاونيات الاستهلاكية ومؤسسات التوزيع على نحو ملحوظ .

ويرى لينين أن إحداث شبكة منسقة من التعاونيات ذات التسيير الذاتي ذات علاقة تعاقدية لا قسرية بالسلطة المركزية ... سيكون العنصر المحرك للاشتراكية . وهذا ما سيؤدي في المستقبل إلى ربط الصناعة الاشتراكية الثقيلة بالاستثمارات الفلاحية التجارية الصغيرة .

وراح المتشددون يصرخون حينذاك بأن هذا ليس تنازلاً ، بل

هو عودة إلى الرأسمالية وإنكار للاشتراكية ... بينما كان لينين ــ عبر النظام التعاوني الذي خصص له مقالته الأخيرة في البرافدا قبيل موته ــ يتلمس الطريق الرئيسية نحو الاشتراكية .

إن (السياسة الاقتصادية الجديدة) على الرغم من أنها مورست في مرحلة عصيبة من الحرمان والإنهاك يعاني منهما الشعب ــ هي أول تجربة للبحث عن عملية ربط وتوازن بين الخطة والسوق . إنها القضية الأساسية في الاشتراكية ، قضية إيجاد علاقة تناغم وتوافق بين السوق والخطة ؛ فالسوق ضرورية لعرض حاجات المستهلكين ، وهي ضرورية كذلك لأنها تحرض على خلق المنافسات والمبادرات لدى المنتجين .

أما تدخل السلطة عن طريق التخطيط فيخدم ثلاث وظائف ضرورية :

١ ــ فهو يمنع السوق حينما تعمل مدفوعة بلعبة المضاربة الفوضوية وحدها ، من أن تصل بهذا المنطق إلى تجميع الثروات في يد أقلية على حساب الضعفاء ؛ وهذا ما نشهده في كل البلدان الآخذة (باقتصاد السوق) أي البلدان الرأسمالية .

وحينما تصبح السوق هي المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية تتسع الهوة بين أقلية من المالكين وأكثرية لا تحصل إلا على قسط ضئيل من خيرات المجتمع .

٢ ــ وهو يسهر ــ في مواجهة هذا التجميع للثروة ــ على تأمين الضمانات الاجتماعية للضعفاء في كل المجالات : في الأجور

والضمان الاجتماعي والسكن والصحة والتربية والثقافة .

٣ ــ ويوجه تدخل الدولة الاقتصاد الوطني على نحو يحقق تعريف ماركس للاشتراكية ، هذا التعريف القائل : « إن كل امرأة ورجل وطفل ينتفع بكل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تتيح لكل من يمتلك موهبة رافائيل أو موزارت أن تتفتح لديه هذه الموهبة وتبرز على أكمل وجه » .

وهذا المفهوم الخاص بالإنسان ـــ كما يطرحه ماركس ـــ الذي يجب أن يعتمد على بناء كامل للنظام الاشتراكي ، هو النقيض الكلي للمفهوم الخاص بالإنسان الذي يزعم أصحابه ـــ دون أن يصرحوا بذلك ـــ الأخذ بالموضبوعية وبالضرورة العلمية ، وهو مفهوم يعتمد على الاقتصاد السياسي الكلاسيكي القائم على الفرضية الإيديولوجية الخاصة بتعريف الإنسان « على أنه كائن منتج ومستهلك ليس غير ، تسيره مصالحه ... » وهذا ما يقود إلى تضارب المصالح في ظل شريعة الغاب ، كما يقود إلى تلك الحرب الدائرة بين البشر ، هذه الحرب التي يسمونها « المنافسة » أو « التبادل الحر » .

إن البحث عن هذه الطريق الجديدة الذي لم يعرفه التاريخ الإنساني والذي خطط له لينين في مقالته (حول التعاون) ، هذه المقالة التي تعد وصية سياسية حقيقية ... قد اختل واضطرب ثم تمّ طمسه من جراء سبع سنوات من الحرب

الأجنبية والغزو والحرب الأهلية ... دمرت معظم المراكز الحيوية للصناعة والزراعة ... ثم جاء موت لينين في أول كانون الثاني ١٩٢٤ .

وقد شهدت السنة الأولى من الاقتصاد السياسي الجديد جفافاً رهيباً خرّب الأراضي الروسية ، فكان ينبغي أن تقام أولاً مراكز إغاثة للجياع لتأمين السلع الضرورية للعيش والتداوي مهما يكلف ذلك .

وراحت منظمات عمالية وإنسانية في أنحاء العالم كافة تجمع التبرعات . وضرب مثقفون كبار المثل الأعلى في العطاء كما فعل أناتول فرانس حينما منح مكافأته المادية من جائزة نوبل إلى جياع الفولغا ، وكما فعل الرائد القطبي النرويجي نانسن حينما قام بجمع التبرعات الكبيرة .

وحتى في الولايات المتحدة قام أصحاب النفوس النبيلة بتنظيم المساعدة الفورية ؛ ولكن الحكومة الأمريكية تعالج المسائل الإنسانية بطريقتها الخاصة كما تعودت أن تعالجها (والحال في الصومال اليوم تضرب المثال على هذه المعالجة) ؛ فهي ترى في هذه المساعدة وسيلة لتدخل سياسي إذ كلفت (المؤسسة الأمريكية للمساعدة) بهذه العملية ... وكان على الحكومة السوفييتية أن ترفض هذا النوع من (الإغاثة) .

وما كادت مآسي الحرمان والعوز تنتهي حتى مات لينين

في مطلع عام ١٩٢٤ . وكان ستالين حتى هذه الفترة الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي بعد أن كان مفوضاً شعبياً لشؤون القوميات ... ثم جمع بين يديه سلطات واسعة في شتى مجالات الأنشطة في البلد : من الاقتصاد إلى السياسة ، ومن الجيش إلى الثقافة .

وقد دلل ستالين في تسيير المهمات المتنوعة على أنه نعم المنظم ، فحظي بشعبية كبيرة واسعة ، على الرغم من أن لينين قد أسرّ إلى اللجنة المركزية — وهو يعترف بمزايا ستالين الرفيعة — أنه يخشى في الوقت نفسه أن يسيء ستالين استعمال سلطاته غير المحدودة التي جمّعها في شخصه ... ولكن اللجنة المركزية تجاوزت عن كل ذلك واحتفظت بستالين في مركز القيادة .

٥

ستالين والتصنيع

في ظل هذه الظروف واجه الاتحاد السوفييتي قضايا النهوض بالاقتصاد القومي ...وعلى رأس هذه القضايا تصنيع البلاد ، هذا التصنيع الذي كان على درجة كبيرة من التخلف أيام القياصرة والذي هدمته سبع سنوات من الحرب .

وبهذا التصنيع يرتبط مستقبل الاشتراكية من تحديث للزراعة ومكْننتها بغية الوصول إلى اكتفاء ذاتي في توفير الغذاء . أضف إلى هذا أنه يجب توفير شروط حياتية أفضل لسكان المدن وتأمين السكن والمواصلات عبر المسافات الشاسعة في هذا البلد ... ولا بد أخيراً من خلق صناعة حربية يقتضيها تطويق البلاد من قبل الأعداء . وكل هذا وذاك يجب أن ينجز دون مساعدة خارجية .

وقد دخلت الخطة الخمسية مجال التطبيق في تشرين الأول عام ١٩٢٨ ؛ وكان إنتاج الطاقة من كهرباء وفحم يحتل الاهتمام الأول ؛ وكذلك الأمر فيما يخص الصناعة الثقيلة ولا سيما إنتاج الصلب .

وكانت المحصلة عام ١٩٣٢ ممتازة ؛ وقد أقر الجميع بذلك حتى

الأجانب . كتبت المجلة الأمريكية (الأمة) في تشرين الثاني ١٩٣٢ تقول : « لقد حققت أربع سنوات من الخطة الخمسية في الاتحاد السوفييتي إنجازات مذهلة ... ولقد تغير هذا البلد إلى درجة لا يكاد يُعرف معها » .

وتقرّ المجلة البريطانية (إلى الأمام) بأنه لكي يُتوصل إلى نتائج كهذه كان لا بد من « العمل بنشاط لم يعهد له العالم مثيلاً » .

وقد زاد حجم الإنتاج الصناعي بنسبة ١٧٠ ٪ بالقياس إلى عام ١٩١٣ ؛ وقد ازدادت صناعة الأدوات الزراعية خمس أضعاف بالقياس إلى عام ١٩٢٨ . أما استطاعة المحطات الكهربائية فلقد تجاوزت بنسبة ٢٥ ٪ توقعات الخطة ، هذه التوقعات التي كانت هي في الأصل مذهلة .

وحينما حدثت الأزمة الكبيرة في العالم الرأسمالي عام ١٩٢٩ فوصلت البطالة إلى نسب مرعبة (١١،٥ مليون عاطل عن العمل في الولايات المتحدة ــ ٥،٦ ملايين في ألمانيا ــ ٢،٦ مليون في فرنسا ــ ٢،٣ مليون في انكلترا) لم يشهد عام ١٩٣٢ في الاتحاد السوفييتي أية بطالة حيث رفعت الأجور بنسبة ١٠٣ ٪ متجاوزة ٤٤ ٪ مما قدّرت لها الخطة .

أما يوم العمل في الاتحاد السوفييتي فهو أقصر يوم في العالم : ففي بداية الثلاثينات أصبحت ساعات العمل في ٨٠ ٪ من المشروعات سبع ساعات في اليوم وستاً في الأعمال الضارة بالصحة

ومناجم الأعماق .

وقد تحولت ٧٠ ٪ من الاستثمارات الفلاحية إلى تعاونيات تبرم عقود البيع مع الدولة . وقد كلفت عملية تنمية التعاونيات الجماعية ثمناً بشرياً باهظاً .

وكان لينين يتوقع في مشروعه الخاص بالتعاون « أن إقامة التعاونيات تقتضي عشرات السنين لكي يتقبلها الفلاحون منطلقين من تجربتهم الخاصة » .

ولكن ، في الأشهر الستة الأخيرة من عام ١٩٢٩ وتطبيقاً لتوجيهات ستالين ، تضاعف عدد الاستثمارات الفلاحية المتحدة في كولخوزات خمس مرات فغطى خمس الأراضي الروسية . وصدر قرار في الخامس من كانون الثاني ١٩٣٠ يقضي بإنجاز إيقاع أسرع للوصول إلى تحقيق التعاون الجماعي الكامل .

إن تمركز الزراعة قد عوّقه إنشاء (مفوضية الشعب للزراعة) ، هذه المفوضية التي راحت توجه من الأعلى إدارة المشاريع الجماعية .

أما الشعار القائل (بتصفية الكولاك على أنهم طبقة اجتماعية) والذي يهدف من حيث المبدأ إلى تصفية كبار ملاكي الأراضي ... فقد أدى على صعيد الواقع إلى تدمير الطبقات المتوسطة في الريف بل اضطهاد صغار المستثمرين .

ولقد فُرضت معايير جنونية ... أكدت البرافدا في افتتاحية لها أن عملية التعاون الجماعي في ٧٥ ٪ من الاستثمارات الفلاحية في ربيع

١٩٣٠ لم تبلغ الحد الأقصى المطلوب !

إن سياسة كهذه تناقض على نحو جذري البرنامج التعاوني الذي وضعه لينين ؛ فالمهل التي فرضت جعلت القسر والإكراه يحلاّن محل القبول الطوعي لدى الفلاحين ، وكان الطابع الغالب طابع العنف ... وهكذا حدث التراجع من التعاقد الطوعي إلى الإلزام والقهر .

وكانت الطرائق التي مورست في الريف في عملية التعاون الجماعي القسري هي نفسها التي راحت تمارس في عملية التصنيع .

مما لا شك فيه أن الخطتين الخمسيتين الأولى والثانية قد أنجزتا على هذا الصعيد معدلات عالية ... فلم تكن الزراعة وحدها منذ الخطة الخمسية الأولى هي التي زُودت بـ ١٢٠ ألف جرار ، ولكن الصناعة في الخطة الخمسية الثانية عام ١٩٣٩ زاد إنتاجها اثني عشر ضعفاً بالقياس إلى عام ١٩١٣ .

لقد أصبحت روسيا التي كانت متخلفة من حيث الصناعة في العهد القيصري ، عشية الحرب العالمية الثانية أول بلد صناعي في أوربا وثاني بلد في العالم ؛ وذلك بفضل إنتاج ١٥ مليون طن من الحديد المصهور و١٨ مليون طن من الفولاذ و١٦٦ مليون طن من الفحم و٣١ مليون طن من البترول و٣ ملايين طن من القطن .

وهنا يمكن أن يطرح السؤال القائل : ولكنْ أية أثمان بشرية قدمت في سبيل ذلك ؟

لقد نجح ستالين ــ ومعه فريق من المسبّحين بحمده ــ في

تحقيق هذا الإنجاز الذي لا خلاف فيه ... ولكنّ ذلك كان بتركيز شديد للسلطة التي تنظر إلى أية معارضة أو أي نقد على أنهما الجريمة عينها والخيانة ذاتها .

إن المحاكمات الكبيرة التي جرت في موسكو والتي تصور الأخطاء الجسيمة التي عانت منها القاعدة من جراء بيروقراطية استعبدها الخوف ... قد حكمت بالموت على منظرين مرموقين مثل بوخارين ، وعلى قادة عسكريين كانوا قد برهنوا على جدارتهم إبان ثورة أوكتوبر كالماريشال توخاتشفسكي . وقد أدت هذه السياسة إلى انتحار قادة مؤسسين من أمثال أوردجو نيكيتزي وإلى مقتل تروتسكي .

ولنا أن نتساءل قائلين : ترى ماذا كانت أبعاد تلك « التصفيات » ؟ وإذا كنا صادقين نقول : إنه ما من أحد يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال . ويقدّر دويتشر في كتابه عن حياة ستالين عام ١٩٥٣ عدد الضحايا بعشرات الآلاف .

وبعد أن قدم خروتشوف تقريره إلى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٥٦ حول أخطاء ستالين وجرائمه يمكن أن يشار إلى أن عدد الضحايا قد ارتفع كثيراً ، ولكن دون أن يصل إلى المستوى الكاذب الذي كرّسته الدعاية اللاحقة التي مارسها ورثة أولئك الذين كانوا قد رسموا للثوري « صورة الرجل ذي السكين بين فكيه » .

ومن الصعب علينا ـــ مثلاً ـــ أن نميز الميتات التي نجمت من

عمليات التحول الزراعي والتصنيع من تلك التي نجمت من الإكراه والقسر في تلك العملية .

ولكنْ من الذي يستطيع أن يحصي عدد الضحايا البشرية التي تكبدتها إنكلترا من جراء العبور من زراعة القمح إلى إنتاج الصوف ، ومن جراء عمليات « المحاصرة والتسوير » التي كانت تطرد الفلاحين من أراضيهم بغية إقامة صناعة كبرى ؟

إن الأسهل من ذلك أن نحدد ما تكلفته إنكلترا وفرنسا من جراء عملية التصنيع في القرن التاسع عشر .. ويكفي هاهنا أن نعود إلى تقارير مفتشي المصانع في انكلترا كما فعل كارل ماركس .

ولدينا فيما يخص فرنسا وثائق محزنة : فتلك التقارير الإحصائية الشهيرة التي وردت في كتابيْ فيللرمي وبوري تقدم لنا لوحة دامية . أما إحصاء عام ١٨٣٧ فيشير إلى أنه في المقاطعات العشر الأكثر تصنيعاً نجد من بين ١٠ آلاف عامل مستخدم ٨٩٨٠ عاملاً ما بين مشوه أو بائس ضعيف .

أما وفيات الأطفال فقد أحدثت أعمق ضروب التخريب ؛ ويشير تقرير للدكتور غاسّيه عن مدينة ليل إلى أنه « يموت في مدينة ليل قبل سن الخامسة طفل من كل ثلاثة في شارع رويال ؛ أما في شارع إيتاك وحده فيموت ٤٦ طفلاً عند الولادة من كل ٤٨ ... وبعد كل هذا يأتون ليحدثونا عن المساواة أمام الموت » .

وفي مدينة نانت يخبرنا الدكتور غيبان بأن « العمال لا يربّون

إلا ربع أطفالهم الذين لم يتناولهم الموت » .

وفي عام ١٨٤٠ يختصر أحد الصناعيين من (تان) نتائج الغياب الكامل للتشريع الخاص بالعمل بما يلي « استنفاد قوى البالغين من جراء أيام العمل المغرقة في الطول — غياب المرأة عن تدبير شؤون بيتها — التفكك البطيء للرابطة الأسرية — الازدياد المرعب في عدد العاملات في المصانع — زيادة عدد الأطفال الذين يولدون أمواتاً — الكساح الذي يصيب الأطفال العاملين » . ويتوقع هذا الصناعي موت الصناعة نفسها في المستقبل القريب ما لم يعالج هذا الوضع ، لأن منابع اليد العاملة من الأطفال ستنضب .

ولهذا انتهى أرباب العمل أنفسهم والطبقات الحاكمة إلى شن حملة من أجل تنظيم العمل .

وقد تدخل بعض النواب مرات عديدة في البرلمان ليطلبوا إلى الحكومة أن تقوم بمنع تشغيل الأطفال دون سن الخامسة في المناجم ! وفي مجال الصناعة القطنية يشير أحد النواب عام ١٨٣٩ إلى أنه قد تم تشغيل ١٥٠ ألف طفل تتراوح أعمارهم بين الخامسة والأربع عشرة يعملون مدة ١٤ ساعة في اليوم الواحد وقد تبلغ ١٧ ساعة .

وفي الثاني والعشرين من آذار عام ١٨٤١ صدر تشريع ينظم عمل الأطفال ؛ وهو يقرر أنه لا يجوز قبول الأطفال دون الثامنة في المصانع ؛ وأن الأطفال بين الثامنة والثانية عشرة يجب ألا يعملوا أكثر من ٨ ساعات ، أما الذين هم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة فلا

تتجاوز ساعات عملهم الاثنتي عشرة ساعة ! ولقي هذا التشريع معارضات عنيفة ، ولم يصوَّت عليه إلا بشرط يقول : « إنه لا يحق لأي مفتش أن يتحرى عن مدى تطبيقه » . وقامت المصانع نفسها باختيار مفتشين متبرعين !

وهكذا إذن يجب ألاّ نعزو إلى بناء الاشتراكية أضراراً أحدثتها حركة التصنيع بغض النظر عن النظام السياسي والزمن الذي استغرقته مرحلة العبور إلى التصنيع ... فما بالك حينما ينجز هذا التصنيع في الاتحاد السوفييتي وسط أجواء معادية تهدد وجوده ؟

ونحن نتوجه إلى من يتجاهلون هذه الإشكالات التاريخية المأساوية ويدّعون تجاوزها بتوجيه أنظارهم إلى الخلف وهم يقولون : « كان يجب على ... ما كان عليهم إلا أن ... » لنذكرهم بالمثال التالي :

حينما راح ستالين يشير إلى البون الذي ما زال يفصل الاتحاد السوفييتي عن البلدان الأوربية الكبرى والأمريكية التي كانت تكنّ له عداءً لا يتزحزح ، وذلك في المؤتمر السادس عشر للحزب البلشفي ... قال : « يجب علينا أن نردم هذه الهوة من التأخر في عشر سنوات ؛ وإلاّ فسوف يسحقوننا » . عشر سنوات ! نعم ففي عام ١٩٤١ اجتاح هتلر روسيا . ترى ما الذي كان سيحل بالاتحاد السوفييتي وبالعالم كله دون هذه الإدارة ذات البصيرة الحازمة النافذة ؟

كانت الخطة تتوقع إنتاج ١٠ ملايين طن من الحديد عام

١٩٣٣ ؛ وهاهو ذا ستالين يلح قائلاً : « يلزمنا إنتاج ١٧ مليون طن في عام ١٩٣٢ » . وواقع الأمر أنهم لم يصلوا إلى تحقيق هذا الهدف إلا عام ١٩٤١ . إنه الوقت الملائم .

وما الذي كان يمكن أن يحدث للعالم لو أن الاتحاد السوفييتي كان غير قادر على مقاومة الآلة الحربية الهتلرية العملاقة ؟ ولو أنه لم يحتمل كل أعبائها وآثارها الباهظة على مدى ثلاث سنوات ... ثم تمكن من سحقها قبل أن تدخل قوات الغرب ساحة المعركة .

٦

الحرب العالمية الثانية

من الضروري ــ فيما يخص موقفنا من سحق النازية ــ أن نصحح حقيقة طالما طُمست ، وذلك من أجل الأجيال التي لم تعش المأساة . وقد طمست هذه الحقيقة بالدعاية ووسائل الإعلام بل بفعل الكتب المدرسية نفسها .

إن معاهدة فرساي المبرمة بعد الحرب العالمية الأولى ، هذ المعاهدة التي جعلت حياة الشعب الألماني مستحيلة من جراء شروط المعاهدة الرهيبة .. أضف إليها الأزمة الكبرى في العالم الرأسمالي التي بدأت في الولايات المتحدة عام ١٩٢٩ وجعلت من ألمانيا هذه مع خمسة ملايين و ٦٠٠ ألف عاطل عن العمل البلد الأكثر تأثراً بالبطالة في أوربا ... إن كل هذا وذاك خلق الشروط المناسبة لتسلم هتلر زمام السلطة .

وإذ وعد هتلر شعبه بأن يعيد العظمة إلى ألمانيا الذليلة وأن يحل مشكلة البطالة تم انتخابه في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ ثم التصويت الشعبي على أن يصبح مستشار ألمانيا .

وقد امتص هتلر البطالة فعلاً بانتهاج سياسة التسليح والتجهيز إلى الحد الأقصى ... ومنذ أن امتلك قوة عسكرية هامة راح يعمل على إعادة بناء « ألمانيا العظمى » وذلك بإعادة النظر في معاهدة فرساي . وكان أول نجاح أحرزه إعادة احتلال منطقة رينانيا .

وقام زعيم إيطاليا الفاشية موسوليني ، حليف هتلر ، وقد شجعه صنيع هتلر ـــ حليفه ـــ باحتلال الحبشة عام ١٩٣٥ دون أن يواجه عقوبات رادعة من (عصبة الأمم) .

وفي عام ١٩٣٦ قام الفاشست الألمان والطليان بتأمين النصر للجنرال فرانكو المتمرد على اسبانيا الجمهورية التي كانت فرنسا وانكلترا قد رفضتا مساعدتها بدعوى « عدم التدخل » الذي انتهكه علانية هتلر وموسوليني .

وفي آذار عام ١٩٣٨ ضمّ هتلر النمسا .. وبدلاً من أن يمارس القادة الإنكليز والفرنسيون سياسة مقاومة الفاشية واعتداءاتها عقدوا مع هتلر « الحلف الرباعي » عام ١٩٣٣ ، ويتألف من ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا العظمى وفرنسا ... وتشكلت جبهة (ستريز) بين انكلترا وفرنسا وإيطاليا ، كما تم اتفاق إنكليزي ألماني عام ١٩٣٥ .

وقد اقترح الاتحاد السوفييتي عبثاً في المؤتمر الدولي لنزع السلاح المنعقد بعد وصول هتلر إلى السلطة بأسبوع واحد مشروعاً يقضي بالرد المشترك على كل عدوان . ولكنه وجد نفسه مهدداً من جهة الشرق الأقصى باليابان التي احتلت منشوريا عام ١٩٣١ وزادت على ذلك

عدة غارات على الأراضي السوفييتية . وفي عام ١٩٣٨ دُحرت قوات اليـابان في منطقة بحيرة (خانكا) . وفي أيار ١٩٣٩ دخلت قوات الجيش الياباني منغوليا ... وقد طوق الجيش السوفييتي اليابانيين وأبادهم في نهاية آب بموجب الحلف السوفييتي ـــ المنغولي . ولم تكن القضية قضيـة منـاوشـــات فلقد فقد الطـيران اليـاباني ٦٠٠ طائرة في تلك العملية .

وبعد ضروب التشجيع التي منحتها القوات الغربية لهتلر أصبح الاتحاد السـوفييتي مهدداً من شـرقيّـه وغربيّه في حرب على جبهتين . يضاف إلى ذلك أن الآلة الحربية الهتلرية كانت تغذيها على نحو واسع البلدان الغربية : ففي تشرين الأول ١٩٣٦ وقّع فون شـاخت وزير الاقتصاد الهتلري اتفاقاً مع قادة فرنسا ، تتلقى ألمانيا بموجبه خامات الحديد لقاء ٣,٥ مليارات مارك في العام حتى نهاية عام ١٩٣٨ . وقد زادت استيرادات ألمانيا من معدن البوكسيت خمسة أضعاف ؛ وهذا ما أتاح للشركات الاحتكارية الألمانية أن تحتل المرتبة الأولى في العالم في صناعة الألمنيوم . أما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى فكانتا تبيعان اليـابان خامات الحديد والبـترول وموادَّ أخرى . وقد لعبت الولايات المتحدة الدور الأول في تمويل المعتدين ؛ فقبـل الحرب العالمية الثانية بلغت استثمارات رؤوس الأموال الأمريكية في المشروعات الألمانية مليار دولار ، وذلك دون حساب الفائدة .

وحينما وجدت تشيكوسـلوفاكيا نفسها مهددة بالغزو الألماني

أعلن الاتحاد السوفييتي استعداده للقيام بتعهداته المنصوص عليها في معاهدة ١٩٣٥ أي بمدّ يد العون إليها على أن تقوم فرنسا كذلك بدورها في هذه المساعدة . وقد طلبت الحكومة السوفييتية عقد مؤتمر عاجل يضم أركان الحرب في الاتحاد السوفييتي وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا ؛ بل إن الحكومة التشيكية قد أُعلمت مرتين في شهر أيلول بأن الاتحاد السوفييتي مستعد لمساعدتها ولو رفضت فرنسا التدخل .

ولقد رفضت فرنسا كل الاقتراحات السوفييتية . أما الحكومة التشيكية التي كانت هدفاً لضغط الدبلوماسية الأنكلوفرنسية فلم تقرر قبول المساعدة العسكرية من الاتحاد السوفييتي ، بل إنها لم تستدع لا الجيش ولا الشعب إلى المقاومة .

وفي العشرين من أيلول توجه تشمبرلن ودالادييه وموسوليني إلى ميونيخ للاجتماع بهتلر ؛ وهناك قُرر مصير تشيكوسلوفاكيا في عدة ساعات من هذا الاجتماع إذ أُمرت بأن تتنازل عن منطقة السوديت إلى الهتلريين .

وهكذا تخلّت (الديمقراطيات الغربية) عن مشروعات الأمن الجماعي في أوربا (١٩٣٣ ــ ١٩٣٤) لتنتقل إلى تعاون علني مع المعتدي .

وفي هذا التاريخ نظر قادة فرنسا وبريطانيا العظمى إلى حملة هتلر على الشرق بعين الإكبار والتقدير . كتب كولوندر سفير فرنسا في

برلين في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٣٨ في تقرير إلى حكومته يقول : « إن الحيوية الألمانية لن تتوقف أمام أية عقبة ... وهم يتحدثون الآن في الأوساط العسكرية الألمانية عن نزهة إلى القوقاز وباكو ... » .

وفي الخامس عشر من عام ١٩٣٩ احتل الهتلريون تشيكوسلوفاكيا ؛ وفي ٢١ آذار طلبوا إلى بولونيا تسليم دانزيغ إلى ألمانيا ؛ وفي اليوم التالي اخترقت القوات الألمانية المقاطعة الليتوانية في كليبيدا . وفي نهاية الشهر نفسه انتهى كفاح الشعب الاسباني الذي دام أعواماً ثلاثة بانتصار فرانكو ... وبعد أيام معدودات احتلت قوات موسوليني ألبانيا .

إن حكومتي بريطانيا العظمى وفرنسا ــ على الرغم من أن سياستهما كانت حتى الآن تشجع مطامع هتلر في الشرق ــ ما عاد يساورهما الشك في أن هتلر حينما ينتصر على الاتحاد السوفييتي فلا أحد يستطيع صدّ هيمنته على أوربا كلها .

وحينما اقترح الاتحاد السوفييتي في ١٧ نيسان ١٩٣٩ عقد حلف ثلاثي للتعاون قررت بريطانيا وفرنسا أخيراً تحت ضغط من شعوبهما قبول التشاور والتباحث . وفي ٢٣ تموز اقترحت الحكومة السوفييتية عقد اجتماع لممثلين عسكريين لقوات الأطراف الثلاثة لاتخاذ إجراءات ملموسة من أجل تعاون مشترك . وعلى الرغم من حالة الاستعجال والضرورة لم تصل الوفود الفرنسية والإنكليزية إلى موسكو إلا في الحادي عشر من آب .

وفي أثناء ذلك وفي ٢٤ تموز ١٩٣٩ أعلم رئيس وزراء بريطانيا تشمبرلن مجلس العموم بأن مباحثات هدسن وزير التجارة الخارجية البريطانية في ٢٠ تموز بلندن قد قررت منح ألمانيا قرضاً بريطانياً قدره مليار جنيه استرليني .

وقد نبه الوفد السوفييتي في المحادثات العسكرية بموسكو إلى أنه إذا أراد الاتحاد السوفييتي أن يجابه العدوان الهتلري على نحو مجدٍ فعّال ، وهو لا يملك حدوداً مشتركة مع ألمانيا ، فلا بد أن يُسمح لجيوشه في حال العدوان بعبور أراضي بولونيا ورومانيا حليفتيْ بريطانيا وفرنسا ... ولكن لم تقم لا هذه ولا تلك بأي ضغط لتطبيق هذا الشرط الأولي الضروري .

وصار واضحاً أن سياسة ميونيخ تمشي قدُماً وأن كل قوى هتلر بإمكانها أن تندفع صوب الاتحاد السوفييتي دون أن تقدِّم أية مساعدة بريطانية فرنسية إلى روسيا . وفي ٢٣ آب ١٩٣٩ اقترح هتلر على الاتحاد السوفييتي عقد معاهدة عدم اعتداء فوقّع الاتحاد السوفييتي عليها على أنها الرد الوحيد الممكن على سياسة (جماعة ميونيخ) ؛ وذلك بغية إبعاد العدوان عن نفسه .

وراح القادة السياسيون الانكليز والفرنسيون الذين كانوا قد عاهدوا هتلر في ميونيخ على تسليمه تشيكوسلوفاكيا في الشرق ... يجهرون بأن ما صنعه الاتحاد السوفييتي مع ألمانيا ليس إلا فضيحة كبيرة وضرباً من الخيانة .

وحينما احتل هتلر بولونيا في الأول من أيلول فانهارت الحكومة البولونية تقدمت القوات السوفييتية في داخل بولونيا حتى « خط كيرزن » ، وهو خط الحدود ما بين روسيا وبولونيا المقترح من قبل اللورد كيرزن عام ١٩١٨ ... وهكذا تم إيقاف التقدم الألماني في الشرق على نحو موقت .

وفي الغرب أعلنت بريطانيا وفرنسا في ٣ أيلول الحرب على ألمانيا . وفي الثلاثين من تشرين الثاني قطعت فنلندا بضغط من القوى الغربية التي وعدتها بالدعم ، محادثاتها التي بدأتها وأعلنت الحرب على الاتحاد السوفييتي .

وكانت حكومتا فرنسا وانكلترا لا تحركان ساكناً على الجبهة الألمانية (وما أغربها من حربٍ لا تحرك ساكناً !) فقامتا بتسليم فنلندا المدافع والطائرات ثم جهزتا حملة عسكرية انكليزية فرنسية من أجل فنلندا ، وعرضت الولايات المتحدة قرضاً عليها .

وفي ٣٠ كانون الأول ١٩٣٩ توقعت النيويورك تايمز أن الحرب بين الاتحاد السوفييتي وفنلندا تستطيع أن تقيم جبهة متحدة في وجه الاتحاد السوفييتي . وقد أرسل موسوليني كذلك مساعداته إلى فنلندا .

وبعد أشهر ثلاثة من نهاية الحرب مع فنلندا (١٢ آذار ١٩٤٠) تلك الحرب التي لم تنجح في تعريض الاتحاد السوفييتي للخطر اجتاح هتلر في ٢٢ حزيران ١٩٤١ وبدون إعلان للحرب ، الاتحاد السوفييتي .

وكان هتلر يظن بأنه بطريق « حرب خاطفة » كالتي نجح بها في فرنسا يمكنه الوصول إلى موسكو ولينينغراد وكييف قبل حلول الشتاء . وكانت الضربات الأولى الناجحة التي قام بها هتلر ضربات صاعقة ... ففي كانون الأول دقت جيوشه أبواب موسكو ... ولقد دمّر في هجومه ١٢٠٠ طائرة سوفييتية و٦٦ مطاراً واستولى بدءاً من الحدود على ٣٠٠٠ آلية حربية وعلى مستودعات للأسلحة . وصارت موسكو في الوسط ولينينغراد في الشمال وكييف في الجنوب مهددة تبعاً للمحاور الثلاثة للهجوم الألماني .

إن التقدم السريع للجيوش الهتلرية لم يعمل على تفتيت القوة العسكرية السوفييتية المدافعة عن الحدود فحسب ؛ وإنما حرم الاتحاد السوفييتي أراضيه الزراعية الأكثر غنى ومراكزه الصناعية الأغزر إنتاجاً .

ومع هذا لم يصل هتلر قبل حلول الشتاء إلى تحقيق أهدافه التي وضعها لحملته ... لأنه لم يقدّر حق التقدير المقاومة الداخلية للشعب السوفييتي ... لقد كان يظن أن النظام السوفييتي سينهار دون أية مقاومة شعبية وذلك بعد تجربة النصر الذي أحرزه في فرنسا وبعد أن كبّد الاتحاد السوفييتي الهزائم العسكرية .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ أولاً لأن القوات السوفييتية ؛ على الرغم من تطويقها وتشتيتها لم تستسلم بل شكلت نواة للمقاومة أخرت التقدم الألماني ؛ ونضرب مثلاً على ذلك أن حامية برست ليتوفسك المطوقة قاومت شهراً كاملاً ، ولم يتم الاستيلاء على حصونها

إلا بعد أن قتل جميع المدافعين عنها . وقاومت كييف على مدى ٨٣ يوماً المهاجمين الهتلريين الذين اجتاحوا المدينة في ١٩ أيلول بعد أن فقدوا ١٠٠ ألف محارب . أما ليننغراد فلم يتم احتلالها قط ... لقد عانى ٢,٥ مليون من سكانها ما عانوا من الحصار الهتلري منذ خريف ١٩٤١ ولم يكن لهم أي اتصال بالعالم إلا عبر بحيرة لادوغا ... وعاشت المدينة كلها المجاعة تحت وابل من قصف المدفعية والطيران على مدى ٨٧٠ يوماً ... ولم تدع للعدو فرصة الدخول إلى مدينة لينين ، مهد ثورة أوكتوبر ... ولم يتم تحريرها من الحصار إلا في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٤ .

وأما جماهير الشعب فقد شكلت وراء خطوط الجيش الألماني مستفيدة من حطام الوحدات العسكرية المهزومة فرقاً من الانصار الذين راحوا يزعجون قوات الاحتلال بعمليات من الهجوم الخاطف كنسف الجسور وتدمير شبكات الهاتف وحرق مستودعات الأغذية والإمداد وقطع الطريق على القوافل الحربية .

وفي موسكو كذلك عبأت الجماهير الشعبية صفوفها لتقيم نظاماً دفاعياً عن المدينة محولة إياها إلى قلعة لم يستطع الهتلريون السيطرة عليها .

جاء في موسوعة أونيفرسالس الفرنسية قولها : « كانت الحرب معياراً لصلابة النظام وتماسكه ... وكان التعاون مع المحتل لا يكاد يذكر ... إلا في مدن البلطيق . إنّ أهمية حرب الأنصار وراء خطوط

العدو ، هذه الحرب التي كانت تقتضي دعم الجماهير دللت على مشاعر التعلق بالوطن السوفييتي ... إن النظام لم يسقط » .

إن عام ١٩٤١ هو للشعب السوفييتي « العام الرهيب » ؛ فالقوات الهتلرية ما زالت تتقدم . ولكي يستطاع مقاومة الغزو تحول اقتصاد البلاد إلى اقتصاد حربي عبر مبادرة جبارة في التحويل وإعادة التركيب ؛ وقد تحولت مصانع الجرارات إلى مصانع للآليات الحربية ... كما تحولت مصانع التعدين إلى إنتاج خلائط لتصفيح الآليات والمدافع المقطورة ... وراحت مصانع الأدوات الزراعية تنتج مدافع الهاون . أما أكبر المصانع في موسكو ولينينغراد وخاركوف وأوديسا وغيرها من المراكز الصناعية في الاتحاد السوفييتي فقد تم تفكيكها ونقلها إلى الأورال في سيبيريا في جمهوريات آسيا الوسطى .

وفي عام واحد تحول الاتحاد السوفييتي الذي جرى احتلاله إلى معسكر حصين ووصل الإنتاج الصناعي بعد عملية النقل هذه إلى مستواه الذي كان عليه قبل الحرب .

إن نتيجة على هذه الدرجة من الإعجاز لا يمكن تحقيقها إلا بتجنيد كل الطاقات الشعبية ؛ وهو تجنيد طوعي لأن الدولة لا تملك في الأراضي المحتلة ولا في الأراضي التي ما تزال حرة ، وسائل ضغط أو قسر وإلزام لتشغيل مثل هذه الجماهير وزجّها في المعركة .

ولم يقو الجيش السوفييتي على الانتقال إلى طور الهجوم إلا في تشرين الثاني ١٩٤٢ بفضل تحويل الاقتصاد وبفضل الولاء التام من

سائر فئات الشعب . وانطلق العمل أول الأمر فيما بين الفولغا والدون حيث طوقت ثلاثة جيوش متواصلة فيما بينها في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٢ القوات النازية التي كانت تحتل ستالينغراد ، هذه القوات المؤلفة من ٢٢ فرقة يبلغ تعدادها ٣٣٠ ألف رجل ... وبعد المعارك الطاحنة التي انتهت باسترداد المدينة شارعاً فشارعاً في ٢٢ شباط ١٩٤٣ اضطر المارشال فون باولوس إلى الاستسلام ... وكانت هناك ١٤٧ ألف جثة من جنوده تغطي الشوارع ؛ وقد أسر ٩١ ألف جندي بينهم ٢٢ جنرالاً .

إن هذا النصر الذي لا سابق له في التاريخ يشكل منعطفاً جذرياً في الحرب العالمية الثانية ... وهكذا انهارت الدعاية التي كانت تسود أوربا والتي تقول : « إن الجيش الهتلري لا يُقهر » .

ومنذ ذلك الحين تسلم الجيش السوفييتي زمام المبادرة ؛ وعلى الرغم من المحاولات الجبارة التي بذلها الجيش الألماني راح الجيش السوفييتي يسترد المدن التي كانت قد احتلت قبل عامٍ مضى .

وأما النصر الثاني الحاسم بعد نصر ستالينغراد فكان على أثر معركة كورسك من ٥ تموز ١٩٤٠ إلى آب ١٩٤٣ ... لقد هيأت هذه المعركة الهجومَ الكبير الذي أوصل الجيش السوفييتي إلى ما وراء الحدود محرراً على نحو متتابع رومانيا فبلغاريا فالمجر فيوغسلافيافتشيكوسلوفاكيا من الهيمنة الهتلرية ... ثم جرى تحرير جمهوريات البلطيق في الشمال .

وأخيراً دخل الجيش السوفييتي ألمانيا . وعبّأ هتلر على الجبهة الشرقية أهم قواته ؛ فلقد سخر ٢٠٤ من الفرق من ٢٧٤ فرقة لمجابهة السوفييت . وراح الجيش السوفييتي يهيئ نفسه لهجومه الأخير في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٥ بغية تحرير بولونيا ومن ثم يتوجه إلى فيينا ثم إلى برلين . وقد جرى تعديل هذه الخطة استجابة لطلب ونستون تشرشل لإنقاذ القوات الأمريكية على الجبهة الغربية .

ومنذ نهاية ١٩٤١ تشكل فعلاً التحالف المعارض للهتلرية مع الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا ، فالجنرال ديغول ـــ على الرغم من الاحتلال الهتلري قد نجح في الاحتفاظ بدورٍ لفرنسا في هذا التحالف ؛ بل إنه هو الوحيد الذي أرسل إلى موسكو كتيبة من الجيش ثم فرقة « نورماندي نيمن » لتقاتل إلى جانب السوفييت على الجبهة الشرقية .

ولكن على الرغم من جهود المقاتلين والمقاومين على الأرض الفرنسية فإن فتح جبهة ثانية ـــ بإنزال جيوش إنكليزية فرنسية أمريكية ـــ لم يتم إلا بعد وقت متأخر جداً في شرقي فرنسا وجنوبيّها في حزيران ١٩٤٤ .

إن هذه الانتهازية السياسية تصور سلوك عدد كبير من السياسيين الغربيين ، كسياسة السناتور الأمريكي ترومان (الذي سيصبح الرئيس ترومان) هذه السياسة التي عبر عنها على نحو انتهازي لئيم حينما كتب يقول : « إذا لحظنا أن ألمانيا بدأت تتفوق فعلينا

مساعدتها كي تقاتل روسيا أطول مدة ممكنة ... » ؛ وهكذا يصور على نحو سابق الطريقة التي جرى تعميمهافيا بعد على العالم كله على يد القادة الأمريكيين بغية الوصول إلى بقائهم في موقع التفوق .

ولكن لعل الأوان قد آن لدى الغربيين للتفكير بأن ميزان القوى قد وصل إلى درجة تجعل من الضروري إقامة جبهة ثانية تناصر جبهة الاتحاد السوفييتي ... كيلا يروا أنفسهم معرضين لخطر رؤية الجيش الأحمر وقد غطى أوربا كلها حتى المحيط الأطلسي . وهكذا انعقد في طهران مؤتمر للحلفاء من ٢٨ تشرين الثاني حتى ١ كانون الأول ١٩٤٣ تعهدت فيه الحكومتان الأمريكية والبريطانية بتنظيم عملية إنزال عسكري في شماليّ فرنسا وجنوبيها قبل الأول من أيار ١٩٤٤ .

وقد تم الإنزال فعلاً في الزمن المحدد على وجه التقريب . وكان هتلر في آخر مراحل الحرب قد جند قوات جديدة إذ كان يملك ٣١٥ فرقة وعشرة ألوية .

لقد حمل الاتحاد السوفييتي وحده على مدى أعوام ثلاثة كل الأعباء من جراء العدوان النازي في البر . ولكن على الرغم من الإنزال الذي تم في الغرب من أوربا بقيت الجبهة السوفييتية الألمانية الميدان الرئيسي للمعارك في الحرب العالمية الثانية . وحتى بداية عام ١٩٤٤ كانت ١٩٨ فرقة و٦ ألوية معبأة للجبهة الشرقية من مجموع ٣١٥ فرقة وعشرة ألوية كان يملكها الجيش النازي . يضاف إلى هذا ٣٨ فرقة و١٨ لواء من حلفاء ألمانيا تحارب على الأرض السوفييتية . يقابل ذلك

أن ١٩ فرقة ولواءً واحداً فقط (أي ٦ ٪ من القوات البرية الألمانية) كانت تقاتل القوات الأمريكية والبريطانية في إيطاليا .

ولم تحتفظ القيادة الألمانية في أراضي فرنسا وهولندا وبلجيكا والنرويج إلا بـ ٦٤ فرقة ولواء واحد (أي ٢٠ ٪ من قواتها البرية) .

ولقد نجح أيما نجاح الإنزال الذي تم على شواطئ فرنسا في النورماندي في ٦ حزيران ١٩٤٤ ، وكان التقدم سريعاً ... حتى إن باريس المنتفضة تحررت قبل وصول جيش الحلفاء إليها ... وقد شهدت طلائع المقاتلين والأنصار استسلام الحاكم الألماني شولتز . أما جيش الحلفاء الذي يضم بين صفوفه وحدات فرنسية ذات كفاءة عالية تحت إمرة الجنرالات : كيينغ ودولاتر ودوتاسيني ولوكلير ومونسابار ، فكان يتقدم دون توقف إلى ما وراء مدينة ستراسبور متجهاً إلى برتشيتسغادن حيث يقيم هتلر .

ولم يكن الأمر كذلك في الجيش الأنكلوأميركي الذي اجتاز شمال فرنسا ؛ ففي ١٦ كانون الأول ١٩٤٤ قامت الوحدات النازية بهجوم معاكس في الآردين ودحرت الأمريكيين الذين تراجعوا صوب البحر وراحت الوحدات النازية تلاحقهم وهم يتراجعون . ويشهد الجنرال الألماني غودريان بأن هتلر « كان يأمل في كسب الوقت لتبديد آمال أعدائه في إحراز نصر كامل وليلزمهم بالتخلي عن مطالبهم باستسلام غير مشروط ويضطرهم إلى عقد سلام منفرد معه » .

وقد التمس رئيس الوزراء البريطاني تشرشل مساعدة فورية من

الحكومة السوفييتية ... فأمرت قيادة هذه الحكومة ببدء الهجوم في ١٢ كانون الثاني على الرغم من أن الأحوال الجوية لم تكن ملائمة لعمليات المدفعية والطيران .

وهكذا اضطرت القيادة الألمانية إلى تحويل القسم الأكثر كفاءة من قواتها من الجبهة الغربية إلى الشرقية على وجه السرعة ... وهذا ما أتاح لقوات الحلفاء الاستمرار في تقدمهم دون أن يواجهوا منذ ذلك الحين مقاومة جديّة . إذن أخفق الهجوم المضاد لدى هتلر الذي كان يهدف من ورائه إلى عرض عضلاته أمام الإنكليز والأمريكان لحضهم على إبرام اتفاق سلام منفرد .

وفي هذه المرحلة الأخيرة من الحرب أوشك الهتلريون أن يوقفوامقاومتهم في الغرب مفضلين أن تجتاحهم قوات الحلفاء في الغرب على أن تجتاحهم القوات السوفييتية المندفعة من الشرق فكانوا يدافعونها بشراسة ليصدّوها عن كل موقع من المواقع .

وخلف التحصينات القوية المنتشر بعضها وراء بعض في العمق وراء الأودر والنيس والتي كان على القوات السوفييتية أن تخترقها واحدة واحدة بتضحيات جسيمة ... كانت برلين تبدو مستعصية على الاقتحام ؛ فهناك خطوط ثلاثة مركزية من التحصينات يضاف إليها تحصينات المدينة نفسها ... وقد أعدّ كل ذلك من أجل مقاومة عنيدة شرسة . كان الجيش الألماني الذي يدافع عن برلين يعد قرابة مليون مقاتل مع ٨ آلاف مدفع ومدفع هاون وأكثر من ١٢٠٠ آلية حربية

ومدافع هجومية و ٣٣٠٠ طائرة . أما القيادة السوفييتية فقد حشدت ١٠ آلاف مدفع ومدفع هاون و ٦٣٠٠ آلية حربية و ٧٣٠٠ طائرة .

وبدأ الهجوم على برلين في ١٦ نيسان ودام حتى الثاني من أيار .
ولم يوقف الهتلريون المقاومة التي أصبحت غير مجدية بل استمروا في زجّ وحداتهم في معارك الشوارع . وقد ألصق على جدار برلين الأمر الصادر عن هتلر : « كل من تصدر عنه إجراءات تضعف قوة المقاومة أو يؤيد هذه الإجراءات يعدّ خائناً وسيرمى بالرصاص أو يشنق على الفور » .

وإذ لم تستجب القيادة النازية للإنذار النهائي بوجوب الاستسلام اندفعت القوات السوفييتية للهجوم على برلين ... واضطر المقاتلون السوفييت على مدى عشرة أيام أن يهاجموا كل حي وكل شارع متوجهين في الحين نفسه وعلى محاور ثلاثة نحو مركز المدينة ليتم اللقاء أمام الرايخستاغ . وفي ٣٠ نيسان رفع العلم السوفييتي أخيراً فوق مبنى الرايخستاغ ؛ وبعد ساعة من الزمن كان هتلر ينتحر ؛ وأما غوبلز فانتحر كذلك بعد أن سمم زوجه وأطفاله . وفي ٢ أيار ١٩٤٥ استسلمت حامية برلين .

وفي أثناء حصار برلين إذ لم يعد للهجمات التي تصيب المواطنين أية جدوى عسكرية لأنها كانت تتركز خلف خطوط القتال ... قام الطيران الأميركي بقصف المراكز الصناعية الكبرى التي ستكون في منطقة الاحتلال السوفييتي مثل هالّه وديسّو ولاسيما

درسدن ... وقد أوقع هذا القصف ١٧٠ ألف ضحية من المدنيين .

لقد خرج الاتحاد السوفييتي منتصراً من الحرب العالمية الثانية التي ضحى فيها بأفدح التضحيات ، واجترح فيها أعظم البطولات . وكانت الولايات المتحدة قد أمدّت الاتحاد السوفييتي (حسب الإحصاء الأميركي) بـ ١٢ ألف طائرة ؛ وكان هتلر قد صنّع في الفترة نفسها ١٨٠ ألف طائرة ؛ أما السوفييت فقد أنتجوا ١٢٠ ألفاً . وقد فقد الجيش الأمريكي الذي تدخل في نهاية الحرب ٢٠٠ ألف رجل ... ولكن السوفييت فقدوا ٢٠ مليوناً ما بين جندي ومدني .

إن عملية إعادة بناء الاتحاد السوفييتي أصبحت قضية ملايين المتطوعين ، هؤلاء الذين كانوا قد تطوعوا لمقاومة الغزو الألماني ... لقد كان على الاتحاد السوفييتي أن يعوض الخسائر ويعيد بناء ما دمّر من مناجم دومباس التي أغرقها الهتلريون ومن خطوط حديدية منسوفة ومراكز كهرباء وسدود محطمة ... كان عليه أن يعيد بناء لينينغراد التي أضحت تلة هائلة من الركام ومقبرة لا حدود لها ، وكييف التي كأنها محيت من الوجود ، وستالينغراد التي لم تعد إلا ركاماً من الحجارة .

وفي نهاية عام ١٩٤٧ وبعد عامين من انتهاء العدوان بلغ مستوى الإنتاج المستوى الذي كان عليه قبل الحرب ... واستمرت هذه الانطلاقة ... وقامت سلسلة أعمال غطت البلاد التي تحولت إلى (ورشات) عمل ومشروعات وصلت حتى سيبيريا ، وامتدت من كازاخستان حتى شمالي بحيرة بايكال ... ومن ذلك إقامة السدود

الكبيرة في انغارا وإنيسّـاي ... ومنه حفر قناة بين الفولغا والدون في الجنوب ، والمركز الكهربائي في خاركوفكا على الدنيبر ... وهذا غيض من فيض .

وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفييتي قدّم مقرر اللجنـة المـركزية للحزب مالينكوف تقريراً لا يخلو من الزهو بتـلك الإنجازات العظيمة التي لا يماري فيها أحد ... ولكنه تحاشى كل نقد يمكن أن يوجه لا إلى النتـائج فحسب ، بل أي نقد يوجه إلى ألوان الانحرافات والأسـاليب الديكتـاتورية والبيروقراطية التي أصبح القادة يستخدمونها أكثر فأكثر مستغلين نشوة النصر والإندفاع لدى جماهير الشعب .

أما ألوان النجاح التي أحرزها الشعب فقد نسبت إلى ستالين وحده دون أن يوجَّه أي نقد لما قام به .

٧

الحرب الباردة

مما لا شك فيه أن المرحلة التي أعقبت النصر كانت بالغة القسوة على الاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص ، لأن التطويق الذي عرفه منذ ولادته عام ١٩١٧ راح يتجدد منذ عام ١٩٤٦ . هاهو ذا ونستون تشرشل في خطابه في ٥ آذار ١٩٤٦ يطلق شعار « الحرب الباردة » . وهو يدعو إلى عرض العضلات أمام روسيا وإلى توحيد الجهود مع الولايات المتحدة في وجه « الشيوعية الشرقية » .

وبعد عام أعلن ترومان « حق » الولايات المتحدة في التدخل بالشؤون الداخلية لكل البلدان (مبدأ ترومان) . وكان التطبيق الأول الفعلي لهذا المبدأ في اليونان إذ تلقى الفاشست والملكيون مساعدة أمريكية سخية ؛ وكان الميدان الثاني لتطبيق هذا المبدأ تركيا جارة الاتحاد السوفييتي . كتب والتر ليبمان في نيسان ١٩٤٧ في هذا الصدد يقول : « لقد اخترنا تركيا واليونان لا لأنهما يمثلان نموذجاً ساطعاً للديمقراطية ، بل لأنهما البوابتان الاستراتيجيتان المؤديتان إلى البحر الأسود نحو قلب الاتحاد السوفييتي » .

وفي صيف ١٩٤٧ نشر سكرتير الدولة مارشال على الملأ مشروعه الخاص بمساعدة دول أوربا اقتصادياً . إن الفكرة الأساسية لهذا المشروع تقوم على تقوية النظام الرأسمالي الذي أضعفته الحرب وعلى تمتينه تحت إشراف الولايات المتحدة بغية مجابهة الاتحاد السوفييتي . وفي عام ١٩٤٧ ومطلع ١٩٤٨ تمت محاولات لتفريق دول أوربا الشرقية بوساطة مشروع مارشال والاستفادة من المصاعب الاقتصادية الحادة التي نجمت عن الحرب ، وذلك لجرّ بعض هذه الدول إلى فلك الولايات المتحدة .

وكان منح المساعدة من قبل الولايات المتحدة مشروطاً بإقامة إشراف إمريكي على التجارة الخارجية وإشراف جزئي على الصناعة والأموال في البلدان المستفيدة بغية الوصول إلى تضييق تجارتها مع الاتحاد السوفييتي .

وقد اتخذ هذا « الحلف المقدس » الجديد على الصعيدين السياسي والعسكري شكل جبهة أوربية في وجه الاتحاد السوفييتي ؛ وذلك بموجب اتفاقات آذار ١٩٤٨ بين بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا ولوكسمبور التي دعمتها الولايات المتحدة في نيسان ١٩٤٩ فضمت إليها إيطاليا والنرويج والدنيمارك والبرتغال ... ليتم توقيع « حلف شمال الأطلسي » الذي ليس إلا تكتلاً عسكرياً . أما الرئيس ترومان الذي كان يأمل بأن تحتفظ الولايات المتحدة بسرّ السلاح النووي فقد بنى على هذا الأمل « سياسته النووية » التي دشنها في هيروشيما .

وأمـا الاتحاد السـوفييتي فقـد شـكـل ـ رداً على الحلف الأطلسـي ـ وبعد سـلسـلة من المعاهدات مع جيرانه (رومانيا ـ هنغاريا ـ بلغاريا) جهاز تحالف مشترك على الصعيدين الاقتصادي (كوميكون) والعسكري (حلف وارسـو) . إن سياسـة الأحلاف والمحاور التي تزعمتها الولايات المتحدة من جانب والاتحاد السوفييتي من جانب والتي أنجزت أول مركز نووي لكل منهما في حزيران ١٩٥٤ ... ستهيمن على مدى ربع قرن على السياسة القائمة على « توازن الرعب النووي » .

وفي هذا التنـافس المأسـاوي أحرز الاتحاد السوفييتي نجاحات كبيرة : منها إطلاق أول قمر صناعي يدور حول الأرض (سبوتنيك) في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ ، وإطلاق أول صاروخ كوني إلى القمر في ٢ كانون الثاني ١٩٥٩ ، وإرسال أول سفينة فضائية على متنها إنسان في ١٢ شباط ١٩٦١ ؛ إنه الرائد غاغارين .

وهكذا بدأ تنافس على الفضاء بين الولايات المتحدة والاتحاد السـوفييتي كلّف البلدين أعباء باهظة ولاسيا الاتحاد السوفييتي الأقل غنى ، هذا التنـافس الذي وصـل إلى ذروته مع التفكـير الجنوني بـ (التدمير المتبادل الشامل) وبما سمي « حرب النجوم » التي حلم بها ريغان .

وكان ستالين قد مات في ٥ آذار ١٩٥٣ ... وبعد أعوام ثلاثة ومن ١٤ إلى ٢٥ شبـاط وفي المؤتمر العشـرين للحـزب الشـيوعي

الســوفييتي راح خروتشـوف يكشف أخطـاء ستـالين وجرائمه . ومن الإنصاف أن نذكّر هاهنا بأننا ندين لخروتشوف بإطلاق مئات الألوف من المعتقلين بعد ردّ الاعتبار إليهم ، أضف إلى ذلك هذه الانطلاقة في حرية التفكير .

ولكن بدلاً من إعادة النظر في مجمـل تطور النظام السوفييتي إنطـلاقاً من المبـادئ النظرية للاشــتراكيـة راح خروتشوف على نحو عشوائي ـــ وكأنه يصفّي حسابات قديمة ـــ يفتح ملفات الممارسات اللاإنسانية للنظام الستاليني . وهكذا نسبت كل الأخطاء والجرائم إلى ما يسمى « عبادة شخصية ستالين » وحدها دون غيرها ؛ وذلك بخلق الوهم القـائل بأنه يكفي لتصحيح أخطـاء الماضي أن نستبدل رجلاً صـالحاً برجل سيئ بدلاً من البحث في بنى النظام نفسه وفي شروط تطوره التاريخي وفي انحرافاته النظرية وفي الأسباب العميقة التي وصلت بهذا النظام إلى ولادة ديكتاتورية ستالين .

إن شخصية ستالين هي محصلة للنظام وليست السبب الوحيد فيما اتصف به من مثالب .

وقد أتاحت عملية الفضح القوية هذه لخروتشوف أن يتسلم السلطة فأصبح مشرفاً على قيادة الحزب والدولة معاً ، كما أتاحت له أن يقيم ستالينية جديدة ولكن دون ستالين .

ومما لا شك فيه أن سياسة القمع البوليسية قد تقلصت إلى حد بعيد ؛ ولكن خروتشوف ـــ شأنه في ذلك شأن ستالين في ميداني علم

الحياة واللسانيات [1] ـــ نصب من نفسه منظّراً آمراً في الدين والفنون بجمود عقائدي مضرّ .

وعلى صعيد السياسة والاقتصاد أطلق خروتشوف بحجة « التعايش السلمي » الشعار القائل : « علينا أن نلحق بالبلدان الرأسمالية ونتجاوزها » هذا الشعار الذي ما عاد يلبي الضرورات الأولية اللازمة لإيجاد اقتصاد صناعي على وجه السرعة ، هذا الاقتصاد الذي يهب البلد وسائل الاستمرار في العيش وسط هذا الحصار المعادي . وعلى نقيض ذلك بدأ منذ ذلك الحين تبني نموذج للتنمية على النهج الرأسمالي القائم على الإشباع الكمّي للرغبات . وهذا ما سمّاه خروشوف « ثورة الغولاش » [2] وذلك بالتلويح بالأمل أمام كل عامل بأن يصبح بورجوازياً مترفاً .

إن الزعم القاتل الذي يرى أن الاشتراكية قد تنجز الرأسمالية أحسن مما ينجزه الرأسماليون قد أدى إلى أسوأ ألوان الزيغ والضلال .

إن في هذا الطرح نسياناً لحقيقة كان قد اكتشفها سيسموندي منذ قرن ونصف حينما كتب عام ١٨٢٧ في كتابه (المبادئ الجديدة للاقتصاد السياسي) يقول : « إن العلماء الذين انفصلت عنهم ـــ

---

١ ـــ يشير الكاتب هاهنا إلى اهتمام ستالين بهذين العلمين وما يُنسبُ إليه من العمل على وضع أبجديات لبعض القوميات الصغيرة التي لم يكن لها لغة مكتوبة .

٢ ـــ كلمة روسية أوردها المؤلف كما هي . وهي اسم (أكلة) روسية شعبية . (المترجمان) .

(ويعني الاقتصـاديين الكلاسيكيين المتفائلين من أتباع مدرسة آدم سميث) ـــ كانوا يـلهثـون وراء ازدهار مزيف ؛ فنظرياتهم التي تطبق تجعل من الغني أكثر غنىً ومن الفقير أكثر فقراً وتبعية وحرماناً » .

والرأسمالية تخلق الثروات فعلاً ... ولكن على حساب عدم المساواة المتزايد في توزيع هذه الثروات . وهذا القانون الأساسي للرأسمالية الذي حلل ماركس أصوله ومنطقه الداخلي وتطبيقه والأزمات التي لا بد أن تنشأ عن ذلك ... لا يمكن أن يتغير وجهه إذا وضعنا البصمة المرئية لحزب السلطة محل البصمة الخفية لنظرية آدم سميث .

وهكذا بدءاً من خرتشوف ثم مع خلفائه راحت تتنامى في داخل الاتحاد السوفييتي مظاهر تفكك الاقتصاد ويتعاظم نفاد الصبر لدى الجماهير الشعبية التي أصابتها الخيبة من جراء الوعود المضللة التي يطلقها القادة . وفي خارج الاتحاد السوفييتي (في منظومة الدول الاشتراكية) أدى هذا الانفلات في الأنانيات الفردية والإقليمية إلى انتفاضات على نظامٍ يزعم أنه يحل عبر جهازٍ ما يزال يزداد تمركزاً ، قضية عدم المساواة ومظاهر الاختلال النابعة بالضرورة من نموذج التنمية الرأسمالي ، هذا النموذج الذي يجري إدخاله بالقوة في البنى التي تدّعي أنها اشتراكية .

إن هذه الانتفاضات التي جرت في ألمانيا الشرقية وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وفي البلدان المجاورة التي أصبحت تابعة للاتحاد السوفييتي ... قد جوبهت بالقمع إلى جانب محاولة الفصل بين

المعسكرين بإقامة « جدار برلين » .

وهذه الهيمنة على البلاد الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي تشبه لدى المعسكر الآخر هيمنة الولايات المتحدة التي كانت تفرضها عبر ديكتاتوريات متناوبة على دول أمريكا اللاتينية ... (بإنتظار أن تفرضها على العالم كله) ... هيمنة تنبع من الأسباب العميقة نفسها ؛ ففي ظل مفهوم اقتصادي كهذا يقتضي ثراءُ بعض الناس استثمار الآخرين والتسلط الاستعماري عليهم .

وينظّر بريجينيف هذه الحقيقة السياسية الاقتصادية فيطلق عليها اسم « السيادة المحدودة » لدى الدول التابعة ... شأنه في ذلك شأن القادة الأمريكيين الذين فرضوا عقيدة التفوق اللازب للولايات المتحدة والخضوع لها من قبل الآخرين وذلك بطريق لعبة الـ (الغات) [1] والصندوق النقدي الدولي وبعرض عضلات تقنياتها العسكرية المدمرة .

وحينذاك كان الأوان قد فات « لإصلاح الاشتراكية » ؛ لأن الاشتراكية لم يعد لها وجود في الاتحاد السوفييتي ... ولهذا حُكم بالإخفاق على محاولة غورباتشوف الجديرة بالثناء من حيث المبدأ .

إن الاشتراكية ــ على نقيض الرأسمالية ــ لا يمكن أن تقوم إلا

---

١ ــ الـ Gat : يشير الكاتب إلى اتفاقية الدول الأوربية على فتح سوق زراعية فيما بينها . وقد حاولت أمريكا محاربتها لكي تصرّف منتوجها كما يحلو لها .
(المترجمان) .

على أساس أخلاقي ... وحينما تنطلق المنافسة في وجه الرأسمالية من منطلق الرأسمالية نفسه بمفهومه عن الإنسان على أنه « منتج مستهلك فحسب » ... فإن الإخفاق لا يمكن تجنبه .

٨

عـــودة الرأســـماليـــة

وهكذا ظهر عضوٌ ما من أعضـاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي ؛ إنه بوريس يالتسين الذي انطلق من نظام سوفييتي كان قد تخلى منذ عشرين عاماً عن كل المبادئ الاشتراكية (حتى المشوه منها) ، هذه المبادئ التي لم يعد يطبَّق منها إلا اسمها ... نعم انطلق يالتسين هذا ليقوم علانية بعملية عبور من محاولة غورباتشوف الخادعة لإصلاح الاشتراكية إلى عملية إعادة الرأسمالية وفرضها ... وذلك بدعم من الولايات المتحدة ومجموعة العالم الرأسمالي .

أما هذا الإخراج لعمـلية « الانقلاب » الذي تمّ في ١٩ آب ١٩٩١ والذي جاء بيالتسين إلى السلطة فله دلالته .

كانت زمرة المتآمرين في قمة الدولة ، وبيدها وسائل القمع ، وهي تهيمن على وزارتي الدفاع والداخلية وعلى كل الجهاز الحزبي ... وهكذا لم يتصل المتآمرون إلا بـ ١٥ فرقة من مجموع ١٨٠ فرقة التي يتألف منها الجيش السوفييتي ، ولم يجندوا إلا خمس فرق مع أمر بعدم إطلاق النار . وفي الوقت نفسه أمروا أحد المصانع في بسكوف بصنع

٢٥٠ ألف قيد ! شأنهم في ذلك شأن أكثر السيناريوهات هذياناً في هوليود (التي كان يسميها ريغان امبراطورية الشر) .

وفيما يجاور وزارة الداخلية لم يجر قطع أي خط هاتفي داخلي أو خارجي ما عدا خط غورباتشوف .

وعاد بوريس يالتسين من إجازته قبل ساعات من تنفيذ الانقلاب ؛ ولم يكن يبدو عليه القلق ، لا في المطار ولا في بيته ... ثم توجه إلى البرلمان واتصل بالهاتف بالرئيس بوش . أما صديقاه عمدتا موسكو ولينينغراد فكان لهما مثل امتيازه وصلاحياته ... ثم وقف يالتسين على إحدى الدبابات المحيطة بالبرلمان بحيث يستطيع بسهولة مندوبو وكالات الأنباء الدولية كافة أن يلتقطوا له الصور ... ودعا إلى إضراب عام لم يستجب له أحد ثم إلى تظاهرات لم تتجاوز موسكو .

وهكذا ولد بطل من أبطال المقاومة !

ومما يزيد هذا السيناريو دلالة ذلك الاستقبال الذي قام به صديق يالتسين ، عمدة لينينغراد في يوم ذكرى ثورة أوكتوبر للدوق فلاديمير في بطرسبورغ (التي كان قد تم تغيير اسمها حينذاك) ... وكان يالتسين قد التقى في باريس وريث القياصرة فلاديمير الذي أكد له تأييده ودعمه .

إن عملية تفكيك الاتحاد السوفييتي التي حلم بها منذ ١٩١٧ سادة العالم الرأسمالي والتي برمجها وهيأ لها القادة الأمريكيون منذ الحرب

العالمية الثانية ... قد وجدت من الآن من ينفذها في شخص الصنيعة يالتسين الذي يجهد قادة أمريكا للاحتفاظ به في السلطة .

ومن أولى العلامات على هذا التفكك تشظّي الاتحاد السوفييتي إلى قوميات متعادية ؛ وليس ظهور هذه العصبيات المتعادية مصادفة تاريخية ... إنها تنبع من المنطق الداخلي لعودة الرأسمالية . إن القرن العشرين هو قرن التطور الشديد للرأسمالية و« قرن القوميات » في الحين نفسه .

لقد وُلدت الرأسمالية في قلب القوميات القديمة (انكلترة وفرنسا) في زمن متقدم ، وكذلك قامت في القرن التاسع عشر الوحدة الألمانية التي بدأت بوحدة جمركية ، وكذلك الأمر في الوحدة الإيطالية بعد ذلك . إن المضمون الحقيقي « للقومية » يتجلى في سوق يحميها جيش ... ثم تفتش « القومية » عن تبرير إيديولوجي لها في أسطورة السلالة أو العرق .

إن هذه الأنانيات القومية التي نجمت عن اقتصاد تكون فيه السوق هي المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية والسياسية ... قد ولدت من الحركة نفسها التي أفرزت النزعة الفردية بوساطة لعبة المنافسة والتزاحم .

وفي مجتمع هذه القوميات التي لم يعد هدفها الجماعي الكبير أساساً لتلاحم داخلي ... يمكن أن نتوقع ولادة مصالح خصوصية تعمل كل واحدة منها على استثمار وضعها الخاص .

وإليك هذا المثال المزلي الواضح في (الاتحاد السوفييتي سابقاً) ... إنه مثال (التاكوت) ، وهي طائفة صغيرة تقيم في مقاطعةٍ ما حيث مناجم الذهب والماس ؛ لقد راحت تطالب باستقلال ذاتي ظناً منها أن ثرواتها المنجمية ستؤمن لها مكانة في السوق العالمية .

ومنذ أن قرر يالتسين إحداث (مجموعة الدول المستقلة) بدأت كل دولة منها تعاني من التجزئة ؛ ففي أوكرانيا قام رئيس برلمان المقاطعة ذات الاستقلال الذاتي في القرم نيقولاي برغوف يندد في ٢٩ حزيران ١٩٩٣ بالاتفاقية الخاصة بأسطول البحر الأسود . وطالب مؤتمر الشيوعيين الأوكرانيين في دونتسك بمقاطعة دونباس بالاستقلال الذاتي لدولة أوكرانيا . أما أذربيجان وأرمينيا فأعلنت الحرب بينهما من أجل مقاطعة كاراباخ العليا ؛ وأما جورجيا فقد عانت من الانقسام من جراء مطالب (الأفخاز) بالاستقلال الذاتي . وفي روسيا نفسها في الأول من تموز ١٩٩٣ أعلن برلمان تسفردلوسك تشكيل « جمهورية الأورال » حيث تتمركز فيها المجمعات الصناعية الكبرى . وفي ٨ تموز أعلن نواب فلاديفستوك ولادة « جمهورية بحرية » مطالبين بالاستفتاء على ذلك . وقد أنذرت مجالس تشيتا وكراسنويارسك في سيبيريا ومجالس فولوغدا وإركنجلسك بأنه إذا لم يستجب المؤتمر التأسيسي لمطالبها فإنها ستعلن نفسها جمهوريات ذات حكم ذاتي ... وقل الشيء نفسه عن التتار والشاشان المعارضين للأنغوش في مطالبتهم بـ أوسّيني .

ولا أحد يدري متى سيتوقف هذا التشرذم والانقسام ؛ فكل

واحدة من هذه المجموعات تحتوي على أقليات هي نفسها غير راضية عن الاستقلال الذاتي .

ولدينا ظاهرة شبيهة بهذه الظواهر ... إنها في يوغوسلافيا ؛ فمنذ اعترفت ألمانيا ـــ دون مشورة حلفائها ـــ بسلوفيينا وكرواتيا بغية تحقيق الحلم الألماني القديم في الوصول إلى البحر الأدرياتيكي ... انفجر الوضع في البوسنة بمجموعاتها العرقية الثلاث ، وكل واحدة من هذه المجموعات مختلف عليها بسبب ما فيها من أقليات ؛ فقد عرفت كرواتيا نفسها اندفاعات انفصالية محمومة في دالماسيا وإستريا .

إن هذا التفتيت الذي لا نهاية له هو من صنع لعبة تلعبها القوى العالمية الكبرى ولا سيا الولايات المتحدة ؛ فكل واحدة من هذه القوميات حينا لا تكفي نفسها بنفسها ستصبح تابعاً للسوق العالمية التي يقود لعبتها المستفيدون الوحيدون من هذا التشرذم والتفكك في المجموعات الكبيرة .

وفي كل يوم نشهد برهاناً على سياسة تفكيك المجموعات الكبرى ؛ هذه السياسة التي تمارسها الولايات المتحدة وتابعوها ؛ نعني بهذه السياسة لعبة الأرجحة وتبادل المواقع بين الولايات المتحدة وأوربا في يوغوسلافيا وما تقومان به من دعم متناوب لمختلف القوميات المتصارعة ... أضف إلى ذلك المضاربات المالية الجبارة من أجل بلبلة وضع قيمة العملات الأوربية ، هذه المضاربات التي ينظمها البنك الأمريكي عبر قراصنة من أمثال (سوروس) الذي جنى من وراء ضربه

الليرة الانكليزية مليوناً من الدولارات ، والذي قام بعدئذ بالإجهاز على البيزيتا الإسبانية والليرالإيطالي ثم الفرنك الفرنسي وسائر العملات في أوربا ... وهكذا يتكشف لنا على نحو صارخ عدم المعقولية في أن ينظر إلى أوربا على أنها سوق فحسب .

إن الخصومات القومية للحصول على حصص في السوق فجرت أسطورة تعاون أوربي مبني على مبدأ السوق ، يشكل « الدعامة الأوربية لحلف الأطلسي » ؛ وهذا ما نصت عليه معاهدة مايستريخ .

هذا ولا يمكن لأوربا أن تكون عاملاً إيجابياً في الحضارة إلا بدفاع مشترك عن ثقافة تنظر بعين التقدير إلى الإسهامات التي يقدمها كل شعب إلى هذه الثقافة بغية مجابهة عملية الطمس والمعاداة التي تمارسها أمريكا .

إن أوربا إما أن تكون معادية لأمريكا أو لا تكون معادية لها ... وهي لن تكون في الخيار الثاني إلا سوقاً مفتوحة للواردات الأمريكية ومعها وارداتها المعادية للثقافة بوساطة السينا والتلفاز وكل ما تحمله معها . نعم لن يكون حينذاك لأوربا إلا باب اللصوصية ومقاولات الوسطاء والتعامل مع أسواق بلدان أوربا الشرقية المحكوم عليها بأن تصبح عالماً ثالثاً جديداً .

نعم إن المهمة الموكلة إلى بوريس يالتسين الذي يدعمه مستشاره الأمريكي جفري ساش ليست إلا تسليم بلاده ودفعها إلى أحضان الدعارة ... وكان يكفي لتحقيق هذه المهمة بتوجيه من

(المأمور التجاري) جفري ساش الذي عينته الولايات المتحدة ، أن يخضع يالتسين ، مقابل وعد بمساعدة مالية ، لشروط « الصندوق النقدي الدولي » ، وهو الساعد الأيمن للولايات المتحدة في سياستها الاقتصادية تجاه العالم الثالث .

وقد طبق بوريس يالتسين حرفياً بتوجيه من (معلمه وسيده) الأمريكي برنامج الصندوق النقدي الدولي بطواعية نموذجية . إنه يحاول أن ينظم الفوضى !

أما العملية المبرمجة لإعادة الملكيات الخاصة فقد قررها هذا القيادي الشيوعي القديم الجامد المتسلط ... لقد تنكر يالتسين لكل ماضيه جملةً وانقلب عدواً شرساً للشيوعية والاشتراكية بعد أن كان حتى ١٩٨٩ قائداً للاتحاد الشيوعي للأورال وعضواً في المكتب السياسي . وهكذا استُخدم ــ وهو ما عليه من شأن ــ لهدم الاقتصاد والدولة وقلبهما رأساً على عقب لكي يفسح المجال لذوي النزعات التجارية الخسيسة والمضاربين العالميين .

إن وفود الصناعيين الغربيين والأمريكيين والسويديين ولا سيما الألمان (مثل باير وسيمنس وغيرها من كبريات الشركات التجارية) يحاولون التمركز في روسيا حيث يبلغ متوسط الأجر اليومي ٥ دولارات (إن الروبل الذي كان يحاول أن يكون على مستوى الدولار انخفضت قيمته فصار كل دولار يساوي آلاف الروبلات) .

ونحن هنا أمام دليل ساطع آخر على السياسة الغربية ، هذه

السياسة الهادفة إلى (نقل مواضع مصانعها) إلى العالم الثالث حيث الأجور هزيلة والضمان الاجتماعي لا وجود له . وتلك ظاهرة ذات دلالة على ما يجري في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) من جعله بلداً من بلدان العا لم الثالث . إن الأجور محكوم عليها بأن تنخفض أدنى فأدنى من جراء انتشـــار البطــالة ... هذا ولم يكن للبطــالة وجود في الاتحاد السوفييتي ، ولكنها تتخذ الآن أبعاداً تصل إلى حد الكارثة من جراء لعبة السوق التنافسية الناجمة عن إعادة الملكية الخاصـة وتمكين رأس المال الأجنبي ... والحق أن انعدام البطالة ـــ سابقاً ـــ كان بسبب من وفرة المشـروعات التي تؤمن العمـل ووسـائل العيش لكل مواطن ... ولكنك ترى في نهاية عام ١٩٩٢ مليون عاطل عن العمل في موسكو التي تعدّ تسعة ملايين .

إن التحـــليـل الذي أجراه البنك الدولي يصنف الجمهوريات الحاليـة للاتحاد السوفييتي في صف الدول الفقيرة ؛ وأما حصـة هذه الجمهوريات في الإنتاج القومي للمواد الخام فهي في تناقص مستمر .

وهذا مثال لا يقل دلالة عن غيره على النتائج الناجمة عن إعادة الملكية الفردية في ميدان العقارات ؛ فسكان حي أوكيتا بربسكي ـــ وهي منطقة صناعية في قلب موسكو ـــ قد أنذروا فجأة بأن حيهم قد بيع إلى شركة أمريكية في حزيران ١٩٩٢ ، وأن عليهم أن يرحلوا من بيوتهم .

إن بـلداً لا دولة فيــه ولا قانون لن يكون جنـة للمستثمرين

(الذين يعانون الحذر والقلق من قضية الاستقرار السياسي) وإنما هو جنة للمضاربين الذين يمارسون الصفقات السريعة الرابحة بما لديهم من (مافيات) رهيبة .

وهكذا ليست الرأسمالية التي تسيطر اليوم في الاتحاد السوفييتي كتلك الرأسمالية الإنكليزية والفرنسية التي أوجدت الخدمات والخيرات في القرن التاسع عشر ... وإنما هي رأسمالية منحطة انحطاط الرأسمالية الأمريكية الحالية القائمة على النهب والسلب .

كتب أمنيون كابليوك ، أحد المراقبين لما يجري في روسيا ، وهو من ذوي البصيرة والذكاء ، يقول : « إن التجارة القائمة على المضاربة في عز ازدهارها ... فالشباب لا يحلمون أبداً في أن يصبحوا رواد فضاء ، بل يحلمون بأن يكونوا رجال أعمال » .

أما الجانب الثاني من تعاليم الصندوق النقدي الدولي بعد إعادة الملكية الفردية فيقوم على (إطلاق الأسعار) ... وقد أعلن عن ذلك بوريس يالتسين في ٢ كانون الثاني ١٩٩٢ ... فتضاعفت حالاً أسعار السلع ثلاثة أضعاف أو خمسة . وكانت النتيجة الأولى لذلك أن نصف سكان الاتحاد السوفييتي اليوم يعيشون تحت « عتبة الفقر » هذه العتبة التي حددتها الأمم المتحدة . ويذهب بعض علماء الاقتصاد إلى أن هذه النسبة قد تصل يوماً ما إلى ٨٠ ٪ من عدد السكان .

إن الطبقات الاجتماعية الأكثر ضعفاً هي التي تأثرت أكثر من غيرها ؛ فالأشخاص المسنون والمتقاعدون الذين كانوا حتى ١٩٩١

يجدون السكن والتدفئة ووسائل النقل والكهرباء ومواد الغذاء بأدنى الأسعار ... يجدون اليوم أنفسهم دون حماية وقد سحقتهم الآلية الجديدة للسوق .

ولا بد لهذا الوضع أن يستفحل خطره من جراء تضخم مالي لا تزال معدلاته تقفز ؛ فقد قفز معدل التضخم من ٣ ٪ إلى ٤ ٪ في أسبوع واحد منذ ١٩٩٢ ليصل إلى ٥٠٠ ٪ في نهاية ذلك العام ؛ ولقد تضاعف حجم الكتلة النقدية المتداولة في عام واحد إذ كان في أول كانون الثاني ١٩٩٢ ، ١٣٥ مليار روبل فصار ٢٦٠ مليار روبل في أول كانون الثاني ١٩٩٣ .

إن إحدى النتائج الهامة الناجمة عن تعميم الروح التجارية في ظل ظروف اقتصادية فاجعة نزوح أبرز الباحثين وأكثرهم كفاءة في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) ، هؤلاء الباحثين الذين كانوا بمنأى من التأثر بالعقلية التجارية ... ولكنهم بسبب أجورهم الهزيلة راحوا يغادرون الوطن أو يبيعون أثمن ما أنتجته عقولهم . ويكفينا هنا هذا المثال : إن العلماء السوفييت في مجال (الليزر) كانوا متقدمين بسنوات عديدة على الأمريكيين ؛ ولكن منذ بداية عام ١٩٩٣ وقع ١٨ معهداً في أكاديمية العلوم في روسيا عقداً مع مخبر ليفرمور الأمريكي (وهو يعمل في مشروعات الحرب النووية و« حرب النجوم ») . وقد عرض هؤلاء العلماء على الأمريكان أن يقاسموهم تقنياتهم في مجال الليزر الذي كان محاطاً بالسرّية بسبب أهميته العسكرية . ولقد بيعت هذه الأسرار بأثمان

زهيدة (٢٥ ألف دولار ثمن ٧ تقارير سرية) .

نعم ... حينما يرمى في سـلة نفايات التاريخ الماضي المشرق لـ ٢٨٧ مـليـون رجل وامرأة ، وحينما يُردّ إلى هاوية البؤس ٨٠ ٪ من هؤلاء فمن الطبيعي مع هذه العودة إلى شريعة الغاب أن تصبح روسيا بلا دولة .

هـاهو ذا الجـنرال روتسكوي نائب رئيس اتحاد روسيـا الذي أصبح عدواً للرئيس يالتسين بعد أن شهد تفكك الدولة يكتب في ١٩ كانون الثاني ١٩٩١ : « لا ديمقراطية في روسيا ... إنه الغياب الكلي للسلطة ... إنها الفوضى والضياع » ، وهو يفضح عملية تسليم البلاد إلى الأجانب ، هذا التسليم المسؤول عن الفساد الخلقي وعن ارتفاع معدلات الإجرام العنيف ونشوء عصابات المافيا .

أما تفشي الاتجار بالمخدرات فليس إلا مثالاً آخر له دلالته ؛ هذا هو مدير مكتب مكافحة المخدرات فالنتين روختشين يكتب قائلاً : « إن المخدرات في طريقهـا إلى الانتشـــار الواسـع في مجمـوعة اتحاد الجمهوريات المستقلة . وعلى امتداد أرض الاتحاد السوفييتي (سابقاً) هناك ما يقرب من ١٤ ٪ من السكان أصابهم أذى المخدرات ؛ فمن متعاطين مدمنين أو غير مدمنين ، ومن منتجين أو سماسرة ، ومن ناقلين أو محضّرين إلى منتفعين بريع هذه التجارة » .

وأما الجنرال ألكسندر سيرغييف رئيس الإدارة المركزية لمكافحة المخدرات في وزارة الداخلية فيؤكد أن ٢٠ مليون من السكان قد تأثروا

بانتشار المخدرات ... وفي هذا المجال يحسن أن نعيد إلى الذاكرة الشعار المضحك ـــ المبكي الذي أطلقه خروتشوف بقوله : إن روسيا في طريقها إلى « اللحاق بالولايات المتحدة وسبقها » ... نعم نعم ، الولايات المتحدة التي تضم ٢٠ مليوناً من المتعاطين للمخدرات كذلك !

وقد قدرت الشرطة الروسية عام ١٩٩٣ حجم الأموال المتداولة من قبل عصابات المخدرات في روسيا بـ ٤٠ مليار روبل (ما يقرب من ٤٠٠ مليون دولار) . ولعل هذا الاتجار بالمخدرات سيكون النشاط الأكثر جلباً للربح ، مثل هذا الربح كمثل ريع الأعمال الخاصة بإنتاج المخدرات وكمثل ريع صناعة السيارات والفولاذ .

وفي أوزبكستان أعلنت الشرطة أن مساحة الأراضي المزروعة بالخشخاش قد تضاعفت ست مرات ، فبعد أن كانت عام ١٩٩١ (١٥٠) هكتاراً صارت ١٠٠٠ هكتار في ١٩٩٣ .

ويتسلل الأفيون من أفغانستان (التي أصبحت عام ١٩٩٣ أول منتج عالمي له) إلى روسيا على نحو واسع ؛ ففي آذار من ذلك العام وضعت شرطة موسكو يدها على كمية من الأفيون بلغت قيمتها ١٥ ألف دولار ... ومع هذا ليس هناك أي تشريع أو قانون ولا أي جهاز حكومي يستطيع الاهتمام بذلك .

إننا مع هذا وذاك أمام أكبر جريمة لقتل الأرواح نجمت عن هذه العودة الرعناء الجامحة إلى الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي .

ومع هذا الإلحاح العنيد على هدم كل أثر للماضي الروسي في العقول والأرواح ، هذا الهدم الذي تجلى على نحو استعراضي في تغيير الأسماء (كما تحول اسم لينينغراد إلى سان بطرسبورغ ، وهو اسمها الألماني الذي أعطاها إياه بطرس الأكبر حينما حاول أن يحدّث روسيا على الطريقة الغربية) ... راح بوريس يالتسين يتابع مشروعاً منظماً لمحو الماضي ؛ فقد طلب ـــ مثلاً ـــ إعادة النظر كلياً بالموسوعة السوفييتية وبالكتب المدرسية بغية « تبني المفاهيم الغربية بتبعية ظاهرة » كما جاء على لسان الجنرال بول ألبير شيرر الذي تسلم على مدى عشر سنوات رئاسة المخابرات العسكرية الألمانية .

وفي هذه الشبكة من علاقات السوق التجارية التي أصبحت مسيطرة حيث كل شيء يباع ويشرى حتى فكر الإنسان وشرفه ... لا تجري محاولة قتل روسيا الثورية ، روسيا لينين وغوركي فحسب ، وإنما قتل روسيا ديستويفسكي وتولستوي ، روسيا ذات الرسالة الإنسانية .

إن انحطاط الاتحاد السوفييتي والأحزاب الشيوعية التي تعدّه مثلها الأعلى قد ظهر بجلاء منذ عام ١٩٦٨ ... لا في اجتياح تشيكوسلوفاكيا ، ولكن في عدم فهم المعنى العميق للحركات الطلابية والعمالية التي برزت حينذاك في العالم .

في عام ١٩٦٨ ... كانت الرأسمالية في وضع حسن ؛ فلا

بطالة ؛ والإفلاس نادر ، ومعدلات التنمية مقبولة ... ولكن في هذا الوقت ذاته انفجرت انتفاضات جبارة ؛ ففي فرنسا أضرب ١٠ ملايين من العاملين كما أضربت كل الجامعات بإشراف من الطلاب ... ونحن لم نتعود وقوع هزات اجتماعية كهذه إلا في مراحل الأزمات التي يمر بها رأس المال ، وذلك كما حدث عام ١٩٣٦ مثلاً حينما قامت الجبهة الشعبية في فرنسا .

ولكن لما كانت هذه الحركات قد قامت على نحو فوضوي بدائي وانتهت أخيراً بالإخفاق فإنها تعبر على نحوٍ ما عن هذا الوعي الذي يدرك أن النظام الرأسمالي المستلب للإنسان هو أكثر خطورة في أحوال نجاحه مما يمكن أن يكون عليه في أحوال إخفاقه وجرائمه .

وهذا ما لم يفهمه لا القادة السوفييت ولا القادة الشيوعيون الأجانب الذين كانوا يتّبعون السوفييت اتباعاً أعمى ؛ وذلك لأن المبادرة الثورية للجماهير كانت تعبر عن نفسها خارج الإطار التقليدي للأحزاب .

إن المتمردين الأغرار الذين كانوا يتظاهرون في باريس وبراغ أو في داكار كانوا يرفضون النموذج الغربي للتنمية الذي كان يسود في فرنسا مثلما يسود في البلدان المستقلة حديثاً كالسنغال المقلد لهذا النموذج ومثلما كان يسود في الأنظمة التي تدّعي الاشتراكية والتي أدخلت هذا النموذج للتنمية إلى الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا ... وإن القمع سواء أكان بطريق الإعلام أو بطريق الانتخابات (كما في فرنسا حيث تم

الاقتراع على انتخاب الرئيس بومبيدو بدافع الخوف الذي أوحت به وسائل الإعلام) أو كان بوليسياً كما في داكار أو عسكرياً كما في براغ حيث تدخلت القوات السوفييتية ... إن هذا القمع بكل صوره تلك كان ينبئ بموت الاشتراكية ويقيم صلاة الشكر من أجل انتصار اقتصاد السوق .

إن المضامين الإنسانية بل اللاإنسانية ، لما حققه يالتسين من تراجع في روسيا هي التي أدت إلى هزيمة الإنسان .

ولقد ولّد انتصار الرأسمالية في روسيا النماذج البشرية ذات الخصائص نفسها التي اتصف بها الانتهازيون والنهّابون في رأسمالية القرن التاسع عشر في أوربا التي كانت في طور الصعود ... وهي الخصائص ذاتها التي اتصف بها (المستنيرون السّفلة) في الرأسمالية المتخلفة لدى القياصرة في بداية القرن العشرين في روسيا ؛ إن الانحطاط الذي يتزعمه بوريس يالتسين يجد له قدوة ومثلاً يحتذى في أمثال (راستينياك) الوصولي و(راسبوتين) السافل .

وحينما أراد يالتسين أن يحول الشعب الروسي العظيم إلى رعاع « يلهثون وراء رغيفهم اليومي » كأولئك الذين تراهم في رواية (المفتش الكبير) لديستويفسكي ... لم تكن النماذج المقترحة للاقتداء أمام الشباب أبطالاً كبطل (المدرعة بوتومكين) أو كنموذج (الأم) لغوركي ، ولم تكن كنموذج الكونت بيزوكوف ، المسيح المعاصر لدى ديستويفسكي أو كنموذج الأمير أندري فولكنسكي في (الحرب

والســلام) لتولستوي ... وإنما أصبحت هذه النماذج نفايات بشرية أفرزتها السياسة الأمريكية .

إن هذا الانحطاط الذي تتقاسمه روسيا يالتسين مع أمريكا ريغان وبوش وكلينتون يقودنا إلى التفكير بمصير عالم ذي ملمح إنساني مشرق انطلق من تجربة السنوات السبعين الملحمية لينتهي بسقوط روسيا ... أي منذ ثورة أوكتوبر حتى « الغيـاب المشؤوم لكل ما هو إنســاني » وسط شريعة الغاب اليالتسينية .

هذا ، ولم تكتمل حلقات هذا التاريخ بعد ... ففي شعب طالما أغنى الحضارة الإنسانية بدءاً من القديس كيريلوس ... وبوشكين ... إلى دستويفسكي ، ومن ألكسندر بلوك إلى لينين لا يمكن للفكر أن يموت .

نعـم ليس في التـاريخ مثـال واحد على نصر دائم تحققـه القوة العسكرية وحدها .

لقد تهاوت الامبراطورية الرومانية المتداعية تحت ضربات أولئك الذين كانت تعدّهم (برابرة) على الرغم من أنها كانت تملك ـــ كما تملك الولايات المتحدة اليوم ـــ قوة عسكرية ساحقة وسلطة لا حدود لها من الضغط الاقتصادي والسياسي .

واليوم ، ولم تكد تمضي أربع سنوات فقط على عودة الرأسمالية المتوحشـة إلى روسيا وغيرها من البلدان ودون أن نصـل إلى ما سمّاه منّظرو البنتـاغون (نهاية التاريخ) أو الانتصـار النهائي لليبيرالية (أي

شريعة الغاب) ... تعود التناقضات إلى الظهور ، وهي التناقضات نفسها التي ولّدت في القرن التاسع عشر معارضات « اشتراكية » في وجه أنظمة الحكم القائمة آنذاك .

لقد ولّدت رأسمالية اليوم المتوحشة ـــ وهذا من طبيعتها ـــ أسوأ المظالم الاجتماعية إلى جانب الصعود المفاجئ لعصابات المضاربات ، وأوقعت الجماهير الغفيرة في أحضان البطالة والبؤس والتسول والعنف الطاغي الذي نجم عن هذه المظالم ... إنها « فوضى » رأس المال التي سبق أن فضحها فورييه عام ١٨٤٧ ؛ فالأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها . وهكذا تشكلت معارضات جديدة في وجه التجاوزات والانحرافات . وحينما يعجز مشروع إنساني كبير شامل عن توحيد الشعوب فلا غرابة في أن نشهد عودة ظهور الخصوصيات والأنانيات المتعصبة ...

ومنذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر راحت تنحلّ عرى « الكنيسة » التي كانت قد أوجدت ـــ ولو بصورة ملتوية ـــ وحدة مسيحية ... واليوم في القرن العشرين ولّدت مساوئ « شيوعيةٍ » وعدت الناس بأمل كبير ، العصبيات والأنانيات وسط رأسمالية جديدة متوحشة . ونحن لا نتوقع من كل الشيوعيين القدامى الذين كانوا على رأس السلطة منذ عدة سنوات أن يأخذوا الدروس والعبر من أخطائهم .

وردّاً على أولئك الفاسدين من أمثال يالتسين وعصبته الذين

وضعوا أنفسهم في خدمة (أسياد العالم الموقتين) ... نرى القادة القدماء في روسيا وليتوانيا وسيبيريا والقوقاز الذين انتخبوا فعادوا إلى السلطة قد أعادتهم مرة ثانية إلى البرلمان انتخابات جديدة وهم من مناوئي يالتسين الذي خالف الدستور وسحق بالمدفعية برلماناً كان يقف عائقاً في وجه ألوان جحوده وتنكره .

ونحن هنا أمام شبه غريب بين نتائج عودة الرأسمالية الحالية وبين تلك النتائج الناجمة عن نشوئها الأول في القرن التاسع عشر : إنها انبعاث المعارضة والمقاومة في وجه عبادة (إله المال) وليبيرالية « شريعة الغاب » ... وهي من جهة أولى مقاومة اجتماعية ، ومن جهة ثانية معارضة « قومية » (كما هو الشأن في قرن القوميات) ، هذه المعارضة التي لها جذورها في التصميم على الاحتفاظ بشخصية مستقلة في وجه (العولمة)[1] المزعومة للاقتصاد باسم حرية المشروعات ، وفي وجه تخريب كل القيم الإنسانية التي جرى تحويلها إلى قيم تجارية محضة .

وفي هذه الحالة ، حالة عبادة أصنام السوق والمال تكون قيمة كل إنسان أو كل شيء مساوية لما يجلبه من ربح أو للثمن الذي يباع به .

إن الخطر لكبير ؛ وهو يكمن في الإفساد والممارسات الديماغوجية في الثورات العادلة بوساطة « نزعات قومية » و« قوميين »

---

١ ــ أي جعله ذا صبغة عالمية .

(المترجمان)

بـالمعنى العرقي ، هذه النزعات القـائمة على إلغـاء الآخرين وعلى شن الحروب ... كما يجري الآن في القوقاز ويوغوسلافيا .

وإن الأديان ذات المؤسسات التي أسهمت منذ قرون في تقديس السلطات كانت عاجزة عن إيقاف انحرافات هذه السلطات ... بل إنها كانت تغذيها .

مثال ذلك أن الكاثوليكية وهي الديانة السائدة لدى الشعوب المهيمنة ، قد فقدت من جراء ضغوطها السياسية تأثيرها السياسي في الشعـوب التي تبنت عقيـدتهـا : ففي إيطـاليـا نرى « الديمقراطيـة المسيحية » التي يدعمها الفاتيكان دون كلل والتي سادت دون منافس منذ نصف قرن تنهار بفعل الفساد ، وتعاني من الازدراء على الرغم من تدخل (البابا) الذي أصدر تعليماته الصارمة عام ١٩٨٧ إلى الأساقفة الإيطاليين بالتصويت إلى جانب الحزب الديمقراطي المسيحي .

واليوم وبعد الهزيمة السـاحقـة للديمقراطية المسيحية في كانون الثـاني ١٩٩٤ يدعو (البـابـا) كذلك إلى « الوحدة السيـاسيـة » للكـاثوليك أي إلى متـابعـة إعطـاء التوجيهـات التي قادت إلى تلك الهزيمة ... وهي دعوة تقوم على تمتين العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والمحافظين .

وفي بولونيا حيث كانت الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون عديدة تربط مصـيرهـا بمصـير الأمة وحيث لعبت دوراً مجيداً في مقـاومة الهتلرية ــ على الرغم من بعض المواقف الرجعية لها ــ ... في بولونيا

هذه أدت سياسة (البابا) ذي الأصل البولوني بشريكه المفضل (ليش فاليزا) إلى العزلة ثم الهزيمة ، وذلك على الرغم من ملايين الدولارات والتبريكات التي خلعها عليه .

إن التصاعد في قوة الشيوعيين في إيطاليا وفي بولونيا (ولعلهم هذه المرة يأخذون عبراً من أخطائهم الماضية) مؤشر ذو دلالة على عجز الرأسمالية والديانة ذات المؤسسات عن خلق مستقبل ذي ملمح إنساني .

أما الإسلام ، وهو الدين السائد لدى المَسُودين ، بمؤسساته التي سخرتها السلطات السياسية فقد دلل على العجز نفسه . وقد نما في قلب هذا الإسلام تياران اثنان : أما الأول فيقوم ــ تحت قناع من التشدد الديني والحرفية والشكلية ــ على تبني اقتصاد الغرب بتوجيه من رؤساء العشائر القديمة الذين أصبحوا من أصحاب المليارات وشركاء للنظام الاستعماري القديم لقاء حمايته السياسية .

وأما التيار الثاني ذو الأصول الأكثر شعبية فهو يرفض محقاً ألوان الرياء الثقافي وضروب الفساد في الغرب ... ولكن ليجد نفسه أمام أنماط حياتية إسلامية كانت تسود قبل الاحتلال الاستعماري .

وهكذا تجري الأمور وكأنه لا خيار لنا إلا تقليد الغرب أو تقليد الماضي !

إذن ليس لدى الديانات التي تقول بوجود المعاني والغايات للحياة ، إجابات عن الأسئلة أو حلول للمسائل الملحة في العالم

المعاصر ، هذه المسـائل المتمثلة في اكتشاف معنى الحياة وغايتها وفي إقامة وحدة للعالم تقف في وجه تأليه السوق وعبادة المال .

إن هذا لن يكـون إلا من صـنع الشعوب بدءاً من القـاعدة الشعبية التي لم تلحق بها كلياً أضرار النماذج الاقتصادية الغربية بما لها من روح استهلاكية وثقافات ملوثة ، هذه النماذج التي يتمّ تسريبها في المدارس والجامعات وعبر وسائل الإعلام والتلفزة .

والقضية بعد ، قضية ثورة ثقافية حقيقية لا يمكن إنجازها إلا بعيداً عن الديانات ذات المؤسسـات ... لنصـل حينذاك إلى إيمان حقيقي بمعنى الحياة وغاياتها ، ولنحمل مسؤوليتنا الشخصية والجماعية في اكتشـاف هذه المعاني والغايات وممارستها في مواجهة التبعية التي يمارسها علينا من يستلبون أرواحنا ومن يدور في فلكهم .

تلك هي قضية الساعة ؛ القضية التي لا نستطيع التنبؤ بحلول لها ؛ ولكننا على يقين من أن جهودنا هي التي ستعمل على إنجاز انبعاث حقيقي .

٩

ماركس والنظام السوفييتي

سننحي جانباً تحليل أحداث هذا التاريخ الذي امتد على مدى ثلاثة أرباع القرن لنفكر في الأسباب النظرية لهذا الصعود ثم السقوط ... بغية رسم المسارات الممكنة لمستقبلنا نحن البشر .

إن سادة الفوضى يحاولون عبر التسخير الإعلامي الجبار أن يجعلونا نسلّم بداهة بأن المخرج الوحيد للخلاص من (الغول) هو العودة إلى شريعة الغاب ؛ وفي هذا نسيان للماضي مرة أخرى ... « فالفوضى الصناعية والتجارية » ـــ كما يمكن لفورييه أن يسميها لو رآها ـــ بما فيها من انعدام للمساواة وألوان من الاستثمار وضروب من العنف (ما زلنا نعاني منها حتى اليوم) هي التي تسببت في ولادة الاشتراكية .

ليس ماركس أول من فضح رأس المال . إنّ غراشوس بابوف في حزيران ١٧٩١ كان يندد بقانون لوشابيلييه الذي حظر على مدى ثلاثة أرباع القرن تشكيل نقابات للعمال واصفاً إياه بأنه « القانون البربري الذي يمليه رأس المال » .

وليس ماركس هو الذي اخترع مقولة « صراع الطبقات » ؛ ففي عام ١٨٣٣ (وكان ماركس في الخامسة عشرة) كتب بيير لورو وهو من أتباع سان سيمون يقول : « إن الصراع الحالي للبروليتاريا في وجه البرجوازية هو صراع أولئك الذين لا يملكون وسائل الإنتاج في مواجهة من يملكونها » .

وليس ماركس أول من عرّى أكاذيب الحرية وفضحها . كتب الأب لاكورديير عام ١٨٣٨ يقول : « في حال وجود الأقوياء والضعفاء فالحرية هي التي تسحق الفقير ، والقانون هو الذي يحرره » .

أما أوغست بلانكي فقد أخذ بالمنطق نفسه حينما كتب يقول في اليوم الثاني من سحق الاشتراكية ، اشتراكية كومونة باريس : « يعيبون على الشيوعية أنها ضحت بالفرد ونفت الحرية ... فباسم مَنْ تطلق هذه الفرضية المتعاظمة المتعجرفة ؟ إنها تطلق باسم الفردية التي تقتل على نحو دائم منذ آلاف السنين الحرية والشخصية الإنسانية . ألا ما أكثر الناس الذين جعلت الفردية منهم رقيقاً أو ضحايا ... لعل النسبة تبلغ واحداً من عشرة آلاف . إنهم عشرة آلاف من الضحايا مقابل جلّاد واحد ! إنهم عشرة آلاف من العبيد مقابل طاغية واحد ! ثم إنهم بعد هذا تراهم يدافعون عن الحرية ! نعم كم من ألوان المراوغة والمخاتلة تكمن وراء التعريفات ... أليس أداء اليمين ـــ ولو كذباً ـــ علامة على الصدق ؟ ! » .

واليوم يجعل السياسيون مما سمّوه « الثورة الروسية في ١٩ آب

١٩٩١ » تاريخاً ؛ وذلك لكي يدفنوا على صورة عشوائية بيروسترويكا غورباتشوف ومبدأ بريجينيف القائل بالسيادة المحدودة لدول المنظومة الاشتراكية والرعب الستاليني ... بل لينين نفسه وثورة أوكتوبر وكارل ماركس ... أي ليدفنوا الاشتراكية صراحة .

كلا ؛ إن التاريخ لا يبدأ بما حدده هؤلاء ... ومن الناحية التاريخية كانت ولادة الاشتراكية في القرن التاسع عشر ؛ ففي كل مجتمع تحل فيه علاقة المال محل علاقة الإقطاع الموروث يصبح اقتصاد السوق هو المنظم الوحيد للعلاقات الإنسانية ، وتنتشر شريعة الغاب حيث يفترس الأشد قوة من الناس الأكثر ضعفاً .

ومن هنا ولدت فكرة إيجاد منظم اقتصادي واجتماعي ... إنه مشروع ماركس القائم على « إتاحة الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية أمام كل إنسان ليطور كل ما لديه من طاقات إنسانية كامنة ... فيستطيع كل طفل يملك موهبة موزار أن يصبح (موزاراً) » . ذلك هو تعريف الاشتراكية من حيث غاياتها ؛ أما تأميم أدوات الإنتاج فليس إلا وسيلة إليها .

وهذا المعيار ليس اقتصادياً ؛ فالمسألة تتعلق بجعل الاقتصاد وسيلة للوصول إلى تلك الغايات . ولتحقيق ذلك لا بد من قطع العلاقة بمنطق السوق ، هذا المنطق الذي هو في جوهره استلاب للجهد والإنسان .

إن ماركس لا يردّ حركة التاريخ إلى حركة اقتصادية محضة ،

هذه الحركة التي تعدّها الرأسمالية الدافع والمحرك ؛ فحينما ادعى بول لافارغ أنه يختصر أفكار ماركس في كتاب سماه « الحتمية الاقتصادية » أجابه ماركس بقوله : « إذا كانت هذه هي الماركسية فأنا لست ماركسياً » . إن النظرة الحتمية القائلة بأن المستقبل هو الامتداد الحتمي للماضي لا يمكن إلا أن تدعم كل مذهب رجعي محافظ .

وأما تجاوز التناقضات في الرأسمالية فيقتضي فعلاً قطع العلاقة بحتمية الاقتصاد الليبيرالي الذي يستلب الإنسان وهو مستلب في الوقت نفسه ؛ وهذا يقتضي إنجاز ثورة تقوم على المعاني السامية لا على الحتمية الآلية .

ولعل الدور الاجتماعي والسياسي للديانات السائدة في عهد ماركس حيث كانت تسيطر على أوربا روح « الحلف المقدس » والفكر اللاهوتي الذي وصفه ماركس منطلقاً من الواقع بأنه « أفيون الشعوب » ... لم يسمح لماركس بأن يرى في ذلك الواقع استلاباً للإيمان كذلك .

إن هذه النظرة المحدودة الضيقة إلى التاريخ في مؤلفات تابعي ماركس الذين كانوا يرددون صيغه دون أن يهتدوا بمنهجه ... قد أثقلت كل تاريخ الاشتراكية وعوقته عن الانطلاق . إن هذه النظرة قد جعلت أحياناً من الإلحاد عنصراً لازماً من عناصر الاشتراكية فحرمت الاشتراكية من أبعادها الروحية ، وذلك لمصلحة ما زُعم أنه « اشتراكية علمية » .

والحق أن أفكار ماركس قلّما تشبه ما نسميه « الماركسية » على وجه العموم ؛ فكل ألوان التحريف الواردة لدى ورثة ماركس المزيفين انطلقت من فهم خاطئ لتعريف الاشتراكية العلمية . لقد فهموا صفة « العلمية » على أنها بمعنى « الوضعية » التي تزعم الوصول إلى حقيقة نهائية ، وذلك بإرجاع المعرفة الخاصة بالإنسان وتاريخه وإبداعاته إلى معرفة « الأحداث » و« القوانين » وبناء الأخلاق والسياسة على هذه المعرفة .

وهذا يعني أن ننسى الحقيقة القائلة : إن العلم والتكنيك يقدمان إلينا الوسائل دون الغايات ... وهكذا فالاشتراكية لا يمكن أن تكون « علمية » إلا بوسائلها فحسب .

إن ماركس لم يُقم تعارضاً بين الاشتراكية العلمية وبين اليوتوبيا الحالمة ؛ وقد أظهر لنا كيف وجدت اليوتوبيا التي تحلم بخلق « الإنسان الحق » في منتصف القرن التاسع عشر القوة التاريخية متمثلة في الطبقة العاملة القادرة على العبور من الحلم إلى « حركة الواقع » . وفي مواجهة اقتصاد السوق والمنافسة التي تستلب الناس ستتيح هذه القوة التاريخية حسب مخطط واعٍ خلق « مجتمع يكون فيه التفتح الحر لكل فرد هو الشرط الأساسي للتفتح الحر لدى الجميع » (البيان الشيوعي) .

هذا ولم يزعم ماركس قط أن الاشتراكية محصلة نظرية مجردة تحتاج إلى برهان . لقد طرح ماركس كل المسائل الكبرى للاشتراكية وشرحها قبل أن يباشر أدنى تحليل علمي للاقتصاد ؛ ففي ١٨٤٣ وقبل

عشرين عاماً من ظهور كتابه (رأس المال) كان ماركس اشتراكياً من منطلق أخلاقي وبفعل توجه روحي يسميه بلغة فلاسفة عصره « صيغة الأمر الصارم الذي يقلب رأساً على عقب كل العلاقات التي تعدّ الإنسان كائناً ذليلاً عبداً منبوذاً محتقراً » .

وقد عرّف في ذلك الحين الرسالة التاريخية للبروليتاريا بأنها « الاسترداد الكامل لإنسانية الإنسان » .

ولم يكن ماركس يحاول قطّ بناء نظام اشتراكي على طريقة الطوباويين ، فهو يقول : « أنا لا أوزع وعوداً بإنشاء المطاعم الرخيصة في المستقبل » ، بل إنه يحلل فقط بنى التنمية وقوانينها في المجتمع الرأسمالي الأكثر تطوراً في أيامه ، إنه مجتمع انكلترا .

وهو يستخلص من ذلك خصيصتين أساسيتين ؛ ففي اقتصاد السوق أي في مجتمع يُنظر فيه إلى كل شيء على أنه بضاعة بما في ذلك الجهد البشري ستقوم (شريعة الغاب) التي تغيب فيها كل غاية إنسانية خالصة . وإن اقتصاد السوق في الرأسمالية « لم يخرج عن الصيغ الحيوانية المادية للاقتصاد » ، هذا ما كتبه ماركس إلى أنغلز بعد أن قرأ داروين .

ويلخص كل ذلك في رسالته إلى جوزيف بلوخ : « إننا نشهد لدى داروين قوى لا حصر لها تتصارع فيما بينها ينجم عنها نتيجة ما يمكن أن يُنظر إليها بدورها على أنها نتاج لقوة فاعلة كل الفعل ، قوة عمياء غير واعية ... إذ أن كل ما يريده أحد الأفراد يحول دون تحقيقه

فرد آخر ... وهكذا ... كأن شيئاً لم يكن » .

وهكذا نشهد ، لدى ماركس ، في المجتمع صراع أضداد يذكّر بألوان الصراع الداروينية ؛ فالثروة المتنامية والسلطة تتجمع في جانب ، والبؤس والتبعية في جانب آخر .

وانطلاقاً من الشكل الآخر لتنظيم العلاقات الاجتماعية ، وهو تنظيم واع وإنساني خالص ، يحدد ماركس غايات هذا التنظيم حينما كتب في مخطوطات ١٨٤٤ بعنوان « الجهد المستلب » : « إن الشيوعية ، حينما تلغي الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، هذه الملكية التي تستلب الإنسان ، هي إذن امتلاك حقيقي لجوهر الإنسان من قبل الإنسان ومن أجل الإنسان . إنها استعادة كاملة واعية لـ (الإنسان) لا تفرّط بتلك الثروة التي حصل عليها عبر مراحل التطور التي مرّ بها الإنسان الاجتماعي أي ذلك الإنسان ذي الصفات الإنسانية الحقة ... فالإنسان يمتلك كينونته الشاملة بطريقة شاملة أي على أنه الإنسان الحق » .

وانطلاقاً من دراسة ماركس لقوانين التطور في الاقتصاد الانكليزي في القرن التاسع عشر فهم الاشتراكية على أنها تجاوز للتناقضات في رأسمالية قد بلغت ذروة نضجها ... وهو يرى أن الثورة الفرنسية قد قدمت مثالاً على ذلك : فهناك طبقة اجتماعية وهي البرجوازية ، أصبحت مسيطرة اقتصادياً ، بينما العلاقات الاجتماعية والسياسية لم تعد تلائم التطور الذي كانت تعوّقه البنى التي كانت

ما تزال بنى إقطاعية . إن الثورة تقوم على هدم البنى المهترئة وتوفير انسجام بين النظام السياسي والاجتماعي وبين الواقع الاقتصادي الجديد . إن الطبقة العاملة ـــ لدى ماركس ـــ وهي في أوج صعودها بفعل التصنيع الذي شمل أوربا الغربية وبخاصة انكلترا وفرنسا ... هي الطبقة الصاعدة الجديدة التي تتخذ مهمة لها تحقيق الانسجام بين البنى السياسية والاجتماعية وبين واقع اقتصادي تهيمن فيه البروليتاريا على بورجوازية ما عادت قادرة على ضبط الأنظمة التي هي أوجدتها .

ولكننا من الناحية التاريخية نشهد أن أول ثورة تنتسب إلى الماركسية لم تنفجر ولم تتطور وفق الشروط المطابقة لفرضية ماركس .

وعلى خلاف ما كانت عليه انكلترا كان التصنيع في روسيا عام ١٩١٧ ضعيفاً ، حتى إن الطبقة العاملة لم تكن تشكل إلا نسبة ٤ ٪ من مجموع القوى العاملة ، وهكذا فهي عاجزة عن أن تحل محل البورجوازية ، وهي بورجوازية ضعيفة بحيث لم تستطع أن تحقق ثورتها الخاصة بها في وجه بقايا الإقطاع في النظام القيصري .

فما هي نتائج حالة كهذه فيما يخص تطور الثورة ؟ إن ثورة في ظل شروط كهذه لا يمكن لها أن تولد من جراء التناقضات في الرأسمالية فحسب ... لقد توافرت لهذه الثورة مجموعة ظروف مواتية ... منها على سبيل المثال ذلك التعارض في روسيا عام ١٩١٧ بين الفلاحين وبين بعض بقايا الإقطاع ، والتناقضات بين هؤلاء الفلاحين وبين الأشكال الجديدة للاستثمار الرأسمالي في الريف ، هذه الأشكال التي

حللها لينين في كتابه « تطور الرأسمالية في روسيا » ... ومنها أخيراً الحرب والهزيمة التي كشفت مدى العجز في نظام هذا شأنه عن حل مجموعة هذه القضايا .

صحيح أنها ثورة واتتها مجموعة من الظروف ؛ ولكنها في الوقت نفسه وبفعل الأسباب نفسها كانت ثورة تمّ اختيار توقيتها الدقيق ، أي إنها تمت — لا كما توقع ماركس وأنغلز بطريق سلسلة من التطور الطويل الناضج — بل بعملية صاعقة خاطفة ... فلقد تم اقتناص اللحظة التي توفرت فيها مجموعة من التناقضات المتنافرة . إن الهجوم على (قصر الشتاء) الذي هو رمز النظام القديم كان نقطة البدء بالقطيعة مع هذا النظام .

كان لينين حينذاك يدرك تمام الإدراك أنه يبتعد عن المخطط الماركسي ، ولكنه رفض انتقادات الماركسيين المتشددين — والحق أنهم حرْفيون — من أمثال كاوتسكي وأكسلرود الذين كانوا يقولون : « إن الظروف الموضوعية لم تتحقق بعد في روسيا ... إذن يجب ألاّ نقوم بالثورة » . ولم يعر لينين سمعه لهذا الاعتراض .

وقد وضّح منذ عام ١٩٠٢ في كراسه « ما العمل ؟ » أن الوعي الثوري لا يمكن أن يولد تلقائياً وعلى نحو عفوي في الطبقة العاملة ضمن دائرة علاقات اقتصادية ونضالات نقابية ، كما وضح أن هذا الوعي يجب أن يأتي إلى الطبقة العاملة من خارج تلك الدائرة ... أما كيف نأتي للطبقة العاملة من خارج تلك الحلقة بوعيها لرسالتها

التاريخية وأشكال التنظيم والاستراتيجية اللازمة لأداء هذه الرسالة ... إن ذلك هو المهمة الملقاة على عاتق الحزب الشيوعي .

إن المخطط الثوري الذي تصوره ماركس منطلقاً من مثال الثورة الفرنسية قد قلبه لينين رأساً على عقب : فبدلاً من أن تحاول طبقة اقتصادية مهيمنة أن توجد الانسجام بينها وبين المؤسسات السياسية والاجتماعية لأنها متفوقة في واقع الحال ... يرى لينين ـــ على نقيض ذلك ـــ أن ننطلق من ظروف تاريخية مواتية لاستلام السلطة السياسية بقيادة الحزب من أجل خلق الشروط الاقتصادية للاشتراكية بفضل هذه السلطة .

والمفارقة التاريخية هي أنك تريد القيام بثورة (بروليتارية) دون وجود للبروليتاريا ... أو ـــ على الأقل ـــ أن تنجز الثورة والبروليتاريا ما تزال جنيناً ... وحينذاك سيكون الانحراف خطيراً ؛ ولقد كان تروتسكي ينبه إلى أن الحزب سيتحدث باسم الطبقة ... ثم يتحدث الجهاز الحزبي باسم الحزب ... ثم يتحدث القادة باسم الجهاز ... وأخيراً يتحدث واحدٌ وحده ويفكر باسم الجميع .

كان لينين يعي هذه المفارقة وأخطارها ؛ فمنذ ١٩١٧ في كراسه « أطروحات نيسان » وفي كتابه « الدولة والثورة » راح يطرح في مرحلة بدء انطلاق الثورة أطروحات معاكسة لتلك التي كان يدافع عنها في كتابه « ما العمل » والتي كان قد دافع عنها بعد ١٩٠٥ في مرحلة تراجع الحركة الثورية . وفي المقدمة التي كتبها عام ١٩١٧ لكتاب

« رسائل من ماركس إلى كوغلمان » يذكّر بأن ماركس لا يقدّر شيئاً مثلما يقدّر « المبادرة التاريخية للجماهير » ؛ وقد احتج بعض رفاق لينين على هذا التحول في الموقف قائلين : « إن عفوية الجماهير هذه هي نقيض الوعي المحمول إليهم من الخارج » فوصفهم لينين بأنهم « بلشفيك شيوخ » يريدون أن يمارسوا في ١٩١٧ ما حدث في ثورة ١٩٠٥ . وكتب يقول : « إن مبادرة ملايين البشر تحمل إلينا دائماً ملامح من الإبداع أكثر مما تحمله أفكار مجردة ، أفكار بعض القادة والمنظرين ، مهما تكن عليه هذه الأفكار من الذكاء والإبداع » .

وكان لينين على يقين منذ البداية من أن هذه الثورة ما كان باستطاعتها أن تنتظر طويلاً مع ضعف الإمكانيات لتنجز رسالتها في التحرير ما دامت روسيا تعيش وسط جو أوربي يعاديها على نحو شرس وينذرها بالتطويق الطويل الأمد ... وهو في آخر مقالة نشرها قبل موته حول « التعاون » يدلل على أن الصيغة التعاونية هي الوحيدة التي تتيح للجماهير العريضة بفلاحيها أن تسهم في إعداد القرارات وتبنيها . ولكن قبل أن نصل إلى هذا « التسيير الذاتي » يتوقع لينين مرور سنوات طويلة حتى يقتنع الفلاحون بجدوى ذلك انطلاقاً من تجربتهم الخاصة .

ويحرص لينين الحرص نفسه على ديمقراطية الإسهام والمشاركة في كل ما يتعلق بالتربية والثقافة ... ففي مقالته نفسها عن التعاون يحدد ما سماه « ثورة ثقافية » فيقول : إنه لدى شعب أميّ لا يمكن أن نرى إسهاماً حقيقياً في اتخاذ القرار من قبل الجماهير العريضة ... وينجم عن

ذلك أننا لن نكون بلداً اشتراكياً إلا إذا حققنا تلك الثورة الثقافية التي بها يمكن للجماهير الواسعة أن تسهم فعلاً في اتخاذ القرار بعد أن نالت حظها من الثقافة .

إن هذا وذاك يقتضي أن تمارس الثورة تطورها بإيقاع بطيء في جو مريح يريد لها الخير لتلتزم طوعاً في سلوك هذه الطريق ، وذلك باستمداد العون والقدوة من شعوب أحسن إعداداً من حيث الوضع الاقتصادي والقوة المادية والثقافية التي تتمتع بها طبقتها العاملة .

وكان لينين يعي أنه لا يمكن إنجاز بناء دائم لاشتراكية تكون اشتراكية حقيقية لبلد مثل روسيا إلا إذا أنجزت البروليتاريا الأوربية ثورتها الخاصة بها ؛ وكان يعتمد في هذا على الثورة الألمانية ... ولكنْ بعد سحق الحركة الثورية (السبارتاكوسية) في ألمانيا وبعد إعدام ليبكنخت وروزا لوكسمبور لم يعد بمقدوره أن يعتمد على تلك الثورة .

لقد أدرك لينين حينذاك أن ما أنجزه مكتوب عليه الإخفاق .

كتب يقول عام ١٩٢٠ : « إن مجالس السوفييت في الشروط التي تعمل فيها الآن إذ لا تشارك مشاركة حقيقية في اتخاذ القرارات الصادرة عن الجماهير الواسعة وإنما تفعل ما تفعل بتوجيه من المثقفين المناضلين ... إن هذه المجالس يمكنها ــ عند اللزوم ــ أن تبني اشتراكية « من أجل الشعب » ، ولكنها اشتراكية لا يبنيها الشعب » .

وكان لينين يتنبأ منذ ١٩٢٠ بمجيء لحظة الانهيار الرهيب ؛ فبعد أن قال : « إن عدونا الرئيسي هو البيروقراطي أي ذلك المناضل الشيوعي

الذي يشغل منصباً إدارياً في الدولة أو الحزب » تابع يقول رداً على تروتسكي الذي كان يتحدث عن دولة بروليتارية : « عمّ تتحدث ؟ إن ما تقوله محض أسطورة ! فدولتنا من حيث المبدأ بروليتارية ، ولكنها دولة بروليتارية يسودها الفلاحون ؛ هذا أولاً ، ثم إنها ــ ثانياً ــ دولة بروليتارية شوهتها البيروقراطية » .

وتوفي لينين عام ١٩٢٤ ... ومنذ نهاية ١٩٢١ وبسبب مرضه فاته أن يعالج هذا الموقف ... وفي كتاب مذكرات بوريس بازانوف السكرتير السابق لستالين ــ وهو كتاب لم ينشر إلا في عام ١٩٨٠ ــ جاء أن لينين في صحواته القصيرة قبل موته وعندما كان يسترجع قدرته على الكلام كان يقول : « بدهي أننا قد أخفقنا . كنا نريد أن نبني مجتمعاً اشتراكياً جديداً بتعويذة سحرية ... بينما يقتضي هذا المشروع الطويل عشرات السنين وعدة أجيال ... إن عقيدة الناس وألوان سلوكهم المكتسبة لا يمكن أن تتغير في لحظة » .

كان أنطونيو غرامشي قائد الحزب الشيوعي الإيطالي يستخدم تعبيراً يقول : « قيام ثورة خلافاً لمبادئ رأس المال لماركس » وهذا ما أدى إلى طريق كان لينين يخشى سلوكها ... وفي عهد قيادة ستالين وفي ظل ظروف دولة ضرب عليها الحصار جرى ما كان قد جرى في أثناء الثورة الفرنسية : فبعد إعلان حقوق الإنسان وبعد نشر دستور ١٧٩٣ الأكثر ديمقراطيــة أصبح النظــام الجمهوري يواجه القوات الأوربية الغازية بحكومة إنقاذ ... ثم فرض الإرهاب ... وهكذا تحولت

أحلام « الديمقراطية الاشتراكية » في هذه الظروف التي تشبه ظروف الثورة الفرنسية ، بما واجهته من ثورة مضادة مسلحة وغزو أجنبي ... تحولت هذه الأحلام إلى أعنف « ديكتاتورية للبروليتاريا » .

أما ضرورة مقاومة الضغط الخارجي وخلق قوة مساوية لقوة الأعداء فلقد أدت إلى إعطاء الأولوية المطلقة لحركة التصنيع . وأما تأميم وسائل الإنتاج فلم ينظر إليه على أنه خلق شبكة من التعاونيات ذات التسيير الذاتي ، وإنما ـــ خلافاً لذلك ـــ تحول إلى عملية تمليك للدولة .

ومع هذا المفهوم لـ (الدولة) أصبحت مجالس السوفييت التي كانت في البداية مجالس عمال وفلاحين ، (عجلة) تدور في الآلة أو (الماكينة) البيروقراطية .

لقد سُحقت أو شُوهت كل الصيغ الإنسانية في الحياة الاجتماعية ؛ وصار ينظر إلى الإيمان على أنه « إيديولوجيا الاستكانة » ؛ وأما الإلحاد فكأنه دين الدولة ... بينما نرى ماركس في كتابه « المدخل إلى نقد فلسفة القانون لدى هيغل » وهو يفضح روح « الحلف المقدس » الموجه ضد الشعوب على أنه « أفيون الشعوب » ... ينظر إلى الدين في الصفحة نفسها وفي السياق نفسه على أنه « تعبير عن البؤس البشري وفي الوقت نفسه احتجاج على هذا البؤس » .

وهكذا كان على الفنون أن تصبح « عجلة » تدور في فلك الدعاية الرسمية ، كما كان على « الواقعية الاشتراكية » أن تبتعد عن

مواجهة الواقع لكيلا ترى فيه التناقضات والمآسي .

وأما الفكر فقد نظر إليه كما تنظر إليه الفلسفة الوضعية على أنه انعكاس لواقع منجز ومحدد في « إنجيل ستالين » الفلسفي القائل : إن هناك ثلاثة مبادئ للمادية ، وأربعة قوانين للجدلية ، وخمس مراحل للتاريخ البشري .

وهكذا أصبح هذا التعارض بين فلسفة ماركسية تقوم على (الفعل) وبين فلسفة مثالية تقوم على (الكينونة) نقيضاً عقيماً وغير تاريخي ، وكأننا أمام تعارض وتناقض بين فلسفة مادية ثورية وفلسفة مثالية محافظة رجعية .

لقد كفّت الجدلية عن أن تكون منهجاً نقدياً حيّاً يسائل الواقع بطريق التجريب ... فصارت نظاماً و(قائمة) لمجموعة قوانين جامدة ثابتة . إن المادية التاريخية لدى ماركس ــ وهي الفرضية التي عملت على إيجاد تقدم حاسم للتسلح بطريقة تدافع بها عن نفسها في مواجهة الوهم القائل بأن الأفكار تحرك التاريخ ، والتي نادت بتحليل الحياة الاجتماعية على أنها وحدة عضوية متكاملة ... إن هذه المادية التاريخية أصبحت تشبه ذلك المذهب القديم القائل بحتمية الإرادة الإلهية ... وبهذا إذن لا بدّ أن تنتقل المجتمعات من مرحلة إلى أخرى لتصل حتماً في النهاية إلى المرحلة الشيوعية !

إن تصدير الماركسية على أنها لاهوت بلا إله مع النظر إلى النظام السوفييتي على أنه النموذج الوحيد الثابت للاشتراكية قد قاد

الأحزاب الشيوعية في أوربا والعالم الثالث إلى إخفاق شامل ... وقد كان إخفاق هذه الأحزاب في العالم الثالث لأنها اتبعت نموذجاً نابعاً من تجربة الغرب الخاصـة : من اقتصـاد سياسي انكليزي وفلسفة ألمانية واشتراكية فرنسية ، ولأن الاشتراكية كان ينظر إليها على أنها مرحلة بين الرأسماليـة والشيوعيـة . ولكن كيف يمكن لشعوب لم تنطلق من بنى رأسمالية وإقطاعية عرفها الغرب أن تتلمس الطريق إلى هذه التجربة ؟ وإذا كان ماركس قد اتخذ الأحزاب الشيوعية الأوربية نموذجاً لتحليل حركة التاريخ انطلاقاً من تطور رأسمالية أوربية غربية كاملة النضج ... فإن الثورة السوفييتية التي ولدت في ظروف استثنائية ملائمة لا يمكن أن تكون نموذجاً شاملاً إلا بعد عملية استقراء واستكشاف محمومين ... وهي ظروف لا تمتّ بصلة إلى الواقع التاريخي للغرب .

إن هذا الخلل قد حول ماركسية ماركس إلى نقيضها : فمنهجية المبادرة التاريخية التي سمحت لماركس أن يحلل تناقضات المجتمعات في عصره وأن يقـترح مشـروعاً قادراً على تجاوزها قد تراجعت إلى نظام ثابت جامد يقوم على تكرار صيغ جاهزة كان يمكن أن تكون فرضيات صالحة لفهم مجتمعات القرن الماضي ، ولكنها أصبحت عديمة الجدوى حينما لم تعد تسمح بولادة فرضيات أخرى للعمل انطلاقاً من الواقع ومن قضـايا العصر ... إنه واقع أوربا وقضاياها ، لأن الاشتراكية لم تكن فيها تجاوزاً لرأسمالية متخلفة كرأسمالية روسيا عام ١٩١٧ ؛ هذه الاشتراكية كان يمكن أن تولد في أوربا من جراء تطور عضوي ضمن

تناقضات رأسمالية متطورة كل التطور ، وليس من جراء تفجر ثوري واتته ظروف ملائمة ... نعم ما كان يمكن لهذه الاشتراكية الأوربية أن تولد من جراء تدمير كلي عنيف لاقتصاد السوق بغية فرض تخطيط صادر من أعلى وبالقوة ، تخطيط لا يحسب حساب واقع البنى الاقتصادية والاجتماعية التي هي ثمرة التاريخ الخاص بكل بلد وثمرة تطوره التقني والسياسي .

إن عملية الإلصاق لـ (نموذج) مستورد نشأ في شروط مختلفة كل الاختلاف عن شروط البلدان التي ألصق بها ... لا يمكن أن تؤدي إلا إلى ولادة أنظمة جاءت بطريق القسر والإكراه ، أنظمة أثار انهيارها دون عنف الدهشة بل الابتهاج لدى بعضهم ؛ وذلك ما حدث في بولونيا وهنغاريا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية . إنها حالة استثنائية ، بل فريدة من نوعها في تاريخ الثورات وتاريخ الثورات المضادة .

ولعل أسوأ ما حدث في تطور هذه « الاشتراكية » هو استعارة مسلّمات من الرأسمالية التي أخذ بها الغرب على أنها نموذج وحيد للتطور اختلط بالنمو الكمي الذي وفرته علوم الغرب وتقنياته .

وسرعان ما أتى النظام الجديد في روسيا بثلاثة مظاهر أساسية للخلل والانحلال :

أولاً ـ صاغ ماركس قوانين النمو الأقصى للرأسمالية الأكثر تقدماً في عصره ، وهي الرأسمالية الإنكليزية ، وذلك بإقامة علاقة

رياضية بين الاستثمارات المخصصة لصنع أدوات الإنتاج وبين تلك الاستثمارات المخصصة لإنتاج السلع الإستهلاكية . وهي النظرية الوحيدة للنمو التي دامت أكثر من قرن .

وجاء بعد ماركس بعض المريدين الحرفيين الجامدين فجعلوا من هذا القانون الوضعي لتطور الرأسمالية الإنكليزية في القرن التاسع عشر قانوناً يقيسون عليه تطور الاشتراكية الروسية في القرن العشرين ... إنه خطأ لا مهرب منه ، وسيؤدي إلى الحيلولة دون التفكير باشتراكية تنطلق من الغايات ، وسيجعل من الصناعة الثقيلة هدفاً جامداً ... وهذا ما سيُرجع ثانية تلك الصفة اللاإنسانية الوحشية التي وسمت عملية التصنيع في القرن التاسع عشر في إنكلترة وفرنسا .

وفي ظل ظروف التخلف الاقتصادي في روسيا عام ١٩١٧ ومع إعادة البناء بعد الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية بدا إعطاء الأولوية الجازمة للتنمية الصناعية على أنه ضرورة تاريخية لكيلا تُسحق روسيا بذلك الحصار الذي فرضته عليها القوى الرأسمالية .

هذا ولم ينكشف أمر الضحايا البشرية إلا بعد بدء انطلاق التصنيع (عام ١٩٣٧ والمحاكمات الكبرى) ؛ ولكن طُمس كل هذا لأن ظروف الحرب والمواجهة تقتضي

ذلك ... ولم تُثر قضية الضحايا تلك الانتفاضات الأولى في ألمانيا وهنغاريا ولا سيما تشيكوسلوفاكيا إلا بعد عملية إعادة البناء .

ثانياً — إن التشويه انطلق من الخلط بين الاشتراكية وتمليك الدولة . وقد سبق لماركس أن سخر من أولئك الذين كانوا يعرّفون الاشتراكية بأنها عمليات تأميم ؛ وكان يقول : « قد يكون بسمارك أكبر اشتراكي في أوربا لأنه أمم مؤسسات البريد ! » .

يعرّف لينين الاشتراكية في آخر مقالة له في البرافدا عن « الحركة التعاونية » على أنها إحداث شبكة من التعاونيات ذات التسيير الذاتي ... وهو يقول : إن التحول في الريف سيستغرق عشر سنوات أو عشرين ، وسوف ينجز على أساس التجارب الناجحة بمعزل عن مدى وعي الفلاحين لقيمة هذا النظام التعاوني ... وحينما زعم ستالين أنه قد جعل الزراعة مشروعاً جماعياً بشهور معدودة وبطريق سلطوية آمرة كان قد ألحق بها ضربة قاتلة لم يقدّر لها حتى اليوم أن تفيق منها .

إن تأميم أدوات الإنتاج في بلد رأسمالي متخلف قد أدى إلى تصنيع لم يتم انطلاقاً من تعاونيات ذاتية التسيير وإنما بطريق « أوامر فوقية » أي بطريق جعل هذه الأدوات

ملكاً للدولة وحصرها في إطار ضيق من المركزية الشديدة .

وبدلاً من أن تكون « الخطة » أداة لأنسنة الاقتصاد [1] وتوجيه الإنتاج لا للربح ، بل لما يخدم الحاجات البشرية ... أصبحت « الخطة » مؤسسة هرمية البناء تكاد تكون عسكرية دون أن تسهم القاعدة فيها ؛ وهكذا يقوم التكنوقراطيون وأعضاء جهاز الحزب بتسلم كل السلطات واتخاذ القرارات باسم العمال الذين لم تجر استشارتهم — وإذا استشيروا فعلى نحو صوري — دون أن يكون لهم أي تأثير في القيادات المركزية .

إن هذا المفهوم عن دور (الدولة) يناقض على نحو جذري مفهوم ماركس عنها ؛ فماركس يضرب مثالاً على الدولة الاشتراكية (وكأنه وجد ضالته المنشودة) كومونة باريس ، وهي النقيض الهام للدولة السوفييتية ؛ فكومونة باريس كانت في توجهاتها وحينما كانت جنيناً تقوم على الإدارة الذاتية والشكل الفيديرالي غير المركزي دون حزب وحيد . وكان أنصار (برودون) يشكلون فيها الأغلبية المطلقة ، وكان لأنصار (بلانك) بعض الممثلين ، ولم يكن فيها إلا ماركسي واحد .

---

١ — أنسنة الاقتصاد : أي جعله ذا ملامح وغايات إنسانية .

(المترجمان)

ثالثاً ــ أما الخلل الثالث الأكبر فقد قام على الخلط بين التخطيط الذي ليس له إلا دور التوجيه وبين أسلوب إداري يعتمد الأمر من فوق ويحدد الاستثمارات والأسعار ومعدلات الإنتاج والتوزيع التجاري وتداول السلطة انطلاقاً من بيروقراطية مركزية وأجهزة محلية تعينها هذه البيروقراطية .

أما أكبر الأخطاء التي وقعت فيها الأحزاب الشيوعية فهي اتخاذها ما جاء في كراس لينين « ما العمل ؟ » نموذجاً للتنظيم سمّوه « المركزية الديمقراطية » ؛ هذا الكراس الذي يدعو إلى تنظيم حزب ذي طابع عسكري . ولكن تلاميذ ماركس نسوا أن ذلك التنظيم كان يوائم ظروف العمل السري في مواجهة القمع القيصري الوحشي ... أما الإبقاء على « شيوعية الحرب » في الحزب والدولة في زمن السلم فلا يمكن أن يؤدي إلاّ إلى الإنهيار .

* * *

إذن إن ما مات مع الاتحاد السوفييتي ليست الماركسية وإنما صيغتها الكاريكاتورية المأساوية .

وما أظن أن هذه النظرة الاستقبالية [1] لدى ماركس قد

---

١ ــ الاستقبالية : علم يدرس الأسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية التي تعمل على تطوير العالم العصري والتنبؤ بالأوضاع التي يمكن أن تنجم عن تأثير هذه الأسباب . (المترجمان)

تحققت مصداقيتها على نحو ساطع كما تتحقق الآن .

إن الأطروحة الرئيسية لدى ماركس تقول بأن الرأسمالية تخلق الثروات (وهو يمتدحها في هذا المجال) ؛ ولكنها في الوقت نفسه تخلق البؤس بطريق عدم المساواة الذي يتولد عنها بالضرورة .

وواقع الأمر ، وفي أيامنا هذه ، وعلى المستوى العالمي ، أن هناك ٨٠ ٪ من الثروات الطبيعية في الكرة الأرضية تسيطر عليها وتستهلكها نسبة ٢٠ ٪ من مجموع سكان الأرض ؛ وهذا يؤدي (كما تقول إحصاءات الأمم المتحدة) إلى موت ٢٥ مليون إنسان كل عام من جراء الجوع وسوء التغذية . إن النموذج الرأسمالي للتنمية يكلف العالم الثالث كل يوم ثمناً باهظاً كذلك الثمن الذي أدته هيروشيما .

إن تراكم الثروات في قطب من المجتمع وتراكم الفقر في قطب آخر يتجلى حتى في البلدان الأكثر غنى ؛ ففي عام ١٩٩٠ يقرّ الرئيس كلينتون بأن نسبة ١ ٪ من المواطنين الأمريكيين ليس غير تستفيد من ٧٠ ٪ من الثروة القومية .

مَنْ إذن هو الذي تنبأ على الوجه الصحيح بمستقبل الرأسمالية ؟ أهو آدم سميث الذي أكد أن كل شخص حينما يحقق مصلحته الفردية فالمصلحة العامة ستكون على أحسن حال ... أم هو ماركس الذي حلل آلية تراكم الثروات في جانب وتراكم الفقر في جانب آخر ؟

ولقد بين لنا ماركس كيف نتغلب على هذا التناقض ... إن ذلك يكون بخطة توجه السوق من أجل حماية الضعفاء وتسخر

الثروات المنتجة لخدمة تطور كل إنسان مهما يكن ... وليس لحرمان الإنسان وسوقه إلى الموت .

نعم ما أشدّ بداهة القول بأن الرأسمالية هي فاسدة في « جوهرها وصلبها » ولكن الاشتراكية لا يمكن أن تفسد إلا عندما نخونها .

إن الاختيــار يطرح نفســه بحدّة كما لم يُطرح من قبل . إنه الاختيار بين « البربرية » ، هذه البربرية التي تولد الانقسامات وضروب الحرمان المميت للآخرين ... سواء كان ذلك على الصعيد العالمي أو على صعيد كل مجتمع ... وبين « الاشتراكية » التي لا تهدف إلا إلى البحث عن الوسائل التي تمنع استقطاب الثروات وتجميعها ، فتعطي بذلك الأولوية للوحدة الإنســانيـة ولتفتح الإنســان وازدهاره ليحقق إنسانيته الكاملة .

ولكن إنجـاز الاشــتراكيـة ليس أمراً قدرياً ؛ إن هذه القدرية لا نراها إلا لدى الإنســان المستَلب في النظام الرأسمالي حيث تؤدي الانحرافـات اليـوم إلى بربرية تكديس الثروات وإلى البؤس والانتحـار الكوني الشامل .

يقــول مـاركس : إن تزايد الاستــلاب لا يستطيع أن يـلغي إمكـانيـة الصراع في وجه هذا الاستلاب ... ونحن نقرأ في تحليلات ماركس ذلك التقابل بين التسامي لدى الإنسان وبين الطبيعة وما فيها من حتمية صارمة حادة .

ألا إنّ المستقبل ليس ما سيكون ... بل ما نفعله نحن فيه .

فهرس

هذا الكتاب

في هذا الكتاب يعلن الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي وجهة نظره حول التجربة السوفييتية وأسباب إخفاقها .

والكتاب بما فيه من حرص على التزام الدقة واعتماد على الوثائق ودفاع عن الإنسان ومستقبله يفتح باب الأمل المتجدد المشرق ، ويحذر من الانغلاق والجمود والحرْفية وما تجرّه من أخطار .

